﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ((الإسراء))

كَيفَ نفهَمُ القُرآنَ؟

أنواع التفسير وشرح بعض آي القرآن

إعداد

محمد بن جميل زينو

المدرس في دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

الطبعة الأولى ١٤١١هـ

أنـــواع التفسيـــر

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن .
٢ ـ تفسير القرآن بالحديث الصحيح .
٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة .
٤ ـ تفسير القرآن بأقوال التابعين .
٥ ـ تفسير القرآن باللغة العربية .
٦ ـ معرفة الاستنباط وأسباب النزول .
٧ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ .
٨ ـ القرآن المكي والمدني .
٩ ـ خصائص القرآن المكي والمدني .
١٠ ـ فوائد العلم بالمكي والمدني .
١١ ـ متى نعمل بالقرآن المكي والمدني .
١٢ ـ نزول القرآن مفرقاً والحكمة منه .
١٣ ـ الأمثلة على نزول القرآن بالتدريج .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد فإن الله تعالى أنزل القرآن الكريم للناس، ليفهموه، ويتدبروه ، ويعملوا به : قال الله تعالى :

﴿ كِتَاب أنزَلنَاه إلَيكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألبَاب ﴾

[سورة ص]

وقد يسر الله فهمه لمن أراد الانتفاع به ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَد يَسَّرنَا القُرءَانَ لِلذِّكرِ ، فَهَل مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ . [القمر ١٧]

وقد أنزله الله باللغة العربية ليعقله العرب ، ويؤمنوا به ، ويبلغوه إلى بقية الأمم ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُم تَعقِلُونَ ﴾ . [يوسف ٢]

وفهم القرآن يحتاج للاطلاع على تفسيره أحياناً ، ولا سيما بعض الآيات التي تحتاج إلى تفسير وتوضيح .

وإني أذكر للقارىء بعض أنواع التفسير التي تساعده على فهم القرآن وتفسيره؛ ثم أذكر له تفسير بعض الآيات المجملة التي تتطلب التفسير والبيان متوخياً ذكر الراجح من أقوال المفسرين مع ذكر الدليل أحياناً.

والله أسأل أن ينفع به المسلمين، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

محمد بن جميل زينو



تفسير القرآن بالقرآن

إن تفسير القرآن بالقرآن هو أعلى أنواع التفسير ، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً .

١ ـ مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ، ومآ أدرَاكَ مَا الطَّارِقُ ، النَّجمُ الثَّاقِبُ ﴾ . [سورة الطارق ٣]

[فالنجم الثاقب] تفسير لكلمة [الطارق] .

٢ ـ ومثال آخر : وهو قول الله تعالى : ﴿ يَسئلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالَميسِرِ قُل فِيهِمَا إِثمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثمُهُمَا أكبَرُ مِن نَّفعِهِمَا ﴾

[سورة البقرة ٢١٩]

فقد جاء في آية أخرى تحريم الإثم الوارد في الخمر وهي قوله تعالى : ﴿ قُل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبيَ الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثمَ وَالبَغيَ بِغَيرِ الحَقِ ﴾ [سورة الاعراف ٣٣]

والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ، وقيل هو الخمر خاصة ، ومنه قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي

كذاك الإثم تذهب بالعقول

وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به . فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها .

وقال في الصحاح : وقد يُسمى الخمر إثماً .
[انظر فتح القدير للشوكاني ج٢ / ٢٠٠]

٣ ـ ومثال آخر قول الله تعالى :
﴿ أَلَآ إِنَّ أَولِيَاءَ اللهِ لَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ ﴾ [يونس ٦٢]
فقد فسر الأولياء بقوله : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس ٦٣]
أقول : وفي هذا التفسير رد على القائلين :
بأن الولي : هو الذي يعلم الغيب أو تكون له كرامات ، أو له قبة على قبره أو غير ذلك من الاعتقادات الباطلة .
فكل مؤمن بالله يطيع أوامره . ويتقي محارمه فهو من أولياء الله ، والكرامة ليست شرطاً فقد تظهر ، وقد تختفي .



تفسير القرآن بالحديث الصحيح

إن تفسير القرآن بالحديث الصحيح مهم جداً لأن الرسول ﷺ أعلم بمراد الله من غيره من الناس جميعاً . فهو كما قال القرآن عنه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ ، إِن هُوَ إِلَّا وَحيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم ٣-٤]

وقد أنزله الله عليه ليبينه للناس ، قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلنَا إِلَيكَ الذِكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[النحل ٤٤]

وقال ﷺ : «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**» [صحيح رواه أبو داود]

١ ـ مثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال ٦٠]

فتفسير [القوة] ورد في قوله ﷺ : «**ألا إن القوة الرمي (ثلاثاً)**» [رواه مسلم]

قال القرطبي : إنما فسر القوة بالرمي وإن كانت القوة تظهر بإعداد غيره من آلات الحرب لكون الرمي أشد نكاية في العدو ، وأسهل مؤنة ، لأنه قد يرمي رأس الكتيبة فيهاب فينهزم من خلفه . [ذكره الحافظ في الفتح]

أقول : حتى الآن فإن آلات الحرب الحديثة يتوقف مفعولها على الرمي ، لذلك حث الإسلام على تعلمه لا سيما للشباب . وليتهم

تعلموه مع السباحة بدلاً من تعلمهم بقية الألعاب التي شغلتهم عنه . قال رسول الله ﷺ :

«من علم الرمي ثم نسيه فليس منا أو قد عصى» [رواه مسلم]

ومرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبي ﷺ :

«أرموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً . أرموا وأنا مع بني فلان . قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم ؟ قال النبي ﷺ : أُرموا وأنا معكم كلكم» [رواه البخاري]

٢ ـ ومثال آخر قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس ٢٦]

فقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر الى وجه الله تعالى حينما قال :

«فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾» [رواه مسلم]

٣ ـ ومثال آخر في قول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [سورة القلم ٤٢]

فقد ذكر البخاري في كتاب التفسير عند تفسير هذه الآية الحديث الآتي : قال رسول الله ﷺ : **«يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة**

فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»

[باب يوم يكشف عن ساق ج٦/٧٢]

فهذا الحديث فيه بيان المراد بالساق ، ولا يلزم منه تشبيه ولا تجسيم ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فأهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبت الله لنفسه كاليدين والوجه والسمع والبصر ، وما أثبته رسول الله ﷺ كالساق والاصابع والقدم على ما يليق بجلاله ولا نعلم كيفيتها .



تفسير القرآن بأقوال الصحابة

إن تفسير الصحابة رضي الله عنهم . كابن عباس وابن مسعود وغيرهما مهم ، لأنهم صحبوا رسول الله ﷺ وتعلموا منه .

١ ـ مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه ٥]

قال الحافظ في الفتح ما يلي : ونقل مُحي السنة البغوي في تفسيره عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن معناه [ارتفع] .

ثم نقل قول أم سلمة وربيعة ومالك وغيرهم :

الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر . [ج ١٣/ ٤٠٦]

٢ ـ مثال آخر في قول الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاء ﴾ [النساء ٤٣]

فقد نقل ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس قال : الجماع .

وقال ابن عباس أيضاً : اللمس والمسُّ والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يُكني بما يشاء .

وقال ابن كثير : وقد صح من غير وجه عن عبدالله بن عباس أنه قال ذلك . ثم ذكر قول ابن مسعود قوله : اللمس : ما دون الجماع ، ثم ذكر ابن كثير قول ابن جرير :

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال عنى الله بقوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس لصحة

الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صَلى ولم يتوضأ .
[ابن كثير ج ١ / ٥٠٢]

<u>ملحوظة</u> : إذا تعارض تفسير الحديث لآية مع تفسير صحابي أو تابعي ، فعلينا أن نوفق بين التفسيرين ، وإن لم يمكن فالواجب أن نقدم تفسير الرسول ﷺ على تفسير غيره مهما كان ، لأن الرسول ﷺ أعلم بمراد الله من غيره ، فهو الذي لا ينطق عن الهوى ، ولأن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدَيِ الله ورسوله** ﴾ [الحجرات ١]

(أي لا تُقدِّموا قولاً أو فعلاً) [ذكره ابن كثير]

مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ **يَوم يُكشَفُ عَن سَاقٍ** ﴾ [سورة القلم ٤٢]

فقد فسرها البخاري بالحديث :

«**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة . .**» (متفق عليه)

وجاء في رواية عن ابن عباس في تفسير الآية قال :

هو يوم كرب وشدة . (ذكره ابن جرير)

فإن صح النقل عنه فلا يتعارض مع الحديث الذي فسر الآية بالساق لله تعالى من غير تشبيه ، فيكشف ربنا عن ساقه يوم القيامة ، وهو يوم كرب وشدة .

ويمكن أن يقال : إن ابن عباس لم يبلغه حديث أبي سعيد الخدري الذي فسر الآية ، كما لم يبلغ أبا بكر الصديق توريث الجدة ، ولو بلغه لفسر الآية بالحديث .

تفسير القرآن بأقوال التابعين

إن تفسير القرآن بأقوال التابعين رحمهم الله مهم أيضاً لأنهم أخذوا عن الصحابة الذين أخذوا عن رسول الله ﷺ .

١ ـ مثال ذلك ما ذكره البخاري في كتاب التوحيد : (ج ٨ / ١٧٥)

قال أبو العاليه : ﴿ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ ﴾ [البقرة ٢٩]

(أي ارتفع) .

وقال مجاهد : استوى : (علا على العرش) . [ج ٨ / ١٧٥]

وقد فسرها الطبري بالعلو بعد أن ذكر أقوالاً كثيرة حيث قال :

وأولى المعاني في قول الله عز وجل :

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ علا تبارك وتعالى عليهن فدبرهن بقدرته وخلقهن سبع سموات .

ونقل الطبري عن الربيع بن أنس :

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ يقول (ارتفع إلى السماء) .

[تفسير الطبري ج ٨ / ١٧٥)

تفسير القرآن باللغة العربية

التفسير باللغة العربية مهم لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلناهُ قُرءاناً عَرَبياً لعَلَّكُم تَعقِلُونَ ﴾ [يوسف ٢]

١ ـ مثال ذلك ما نقله الحافظ في الفتح عن ابن بطال قال : اختلف في الاستواء المذكور هنا أي في آية : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ فقالت المعتزلة : معناه الاستيلاء بالقهر والغلبة ، واحتجوا بقول الشاعر :

قد استوى بِشر على العراق
من غير سيف ودم مهراق

ثم رد هذا القول حيث قال : فأما قول المعتزلة فإنه فاسد لأنه لم يزل قاهراً غالباً مستولياً سبحانه وتعالى ؛ وذكر أقوالاً عديدة ثم قال : وأما تفسير استوى : علا فهو صحيح وهو المذهب الحق وقول أهل السنة ، لأن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالعلي . (أي الأعلى) .

وقال : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وهي صفة من صفات الذات . [فتح الباري ج١٣/ ٤٠٦]

أقول : الصواب أن يقال : الاستواء من صفات الله الفعلية

المتعلقة بذات الله . والله أعلم .

[انظر شرح العقيدة الواسطية لهراس ص ٩١]

ثم ذكر الحافظ في الفتح قائلاً : وقد نقل أبو إسماعيل الهروي في كتاب الفاروق بسنده إلى داود بن علي بن خلف قال : كنا عند عبدالله بن الأعرابي يعني محمد بن زياد اللغوي فقال له رجل : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ فقال : هو على العرش كما أخبر قال يا أبا عبدالله إنما معناه استولى ، فقال اسكت ، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد .

وقال غيره : لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش لأنه غالب على جميع المخلوقات . (ج١٣ /٤٠٦)

والعجيب أن الأشاعرة أخذوا عن المعتزلة تفسير استوى بمعنى استولى ، وفشى هذا في بعض كتب التفسير والتوحيد وأقوال الناس ، فأنكروا العلو لله عز وجل كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ؛ حتى خالفوا اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم .

ورحم الله ابن القيم حين قال : لقد أمر الله اليهود أن يقولوا [حطة] فقالوا حنطة تحريفاً وأخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه ﴿ **استوى** ﴾ على العرش فقال المتأولون : استولى ، فانظر ما أشبه لامهم التي زادوها

بنون اليهود التي زادوها . [انظر القصيدة النونية لابن القيم]

٢ ـ ومن التفسير باللغة العربية ما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الانبياء ٥٢]

ومعنى التماثيل : الأصنام ، كما جاء في تفسير فتح القدير للشوكاني حيث قال : والتماثيل : الأصنام ، وأصل التمثال الشيء المصنوع مشابهاً لشيء من مخلوقات الله سبحانه . يقال مثّلت الشيء بالشيء إذا جعلته مشابهاً له ، واسم ذلك الممثّل تمثال . [٣/٤١١]

والأصنام التي كان المشركون يعبدونها تمثل الأولياء ، والدليل :

أ ـ ذكر البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى :

﴿ وقالوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً ﴾ . [نوح ٢٣]

قال : صارت الأوثان التي كانت تَعبد في قوم نوح في العرب . . . . وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت(أي الأصنام) .

ومعنى : (نُسخ العلم) أي علم تلك الصور بخصوصها . [ج٦ / ٧٣]

ب ـ وذكر البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النجم ١٩]

قال كان (اللات) رجلاً صالحاً يلت سويق الحاج . [ج ٦ / ٥١]

أقول ولذلك عبر عنهم القرآن بالأولياء في كثير من الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الشورى ٩]

ومن هذا التفسير المتقدم تعلم خطأ كثير من المسلمين الذين يزعمون أن المشركين الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا يدعون أصناماً من الحجارة وليسوا بأولياء ، وهذا خطأ لأن الأوثان والأصنام كانوا يمثلون رجالاً صالحين (أولياء) كما تقدم .

٣ ـ ومن التفسير باللغة العربية قول الله تعالى :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد ١٩]

فالإلـه : معناه المعبود ، فيكون معناها : لا معبود إلا الله ، ولما كانت المعبودات من دون الله كثيرة : فالهندوس في الهند يعبدون البقر ، والنصارى تعبد المسيح ، وبعض المسلمين ـ مع الأسف الشديد ـ يعبدون الأولياء ويدعونهم من دون الله ؛ فالحديث يقول :

«الدعاء هو العبادة» . [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]

لذلك كان لابد من إضافة كلمة (حق) على التفسير ، فيصبح معناها : لا معبود حق إلا الله ، وبذلك خرجت جميع المعبودات الباطلة كلها . والدليل على هذا التفسير قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ ﴾
[لقمان ٣٠]

ومن هذا التفسير لمعنى الإله يتبين خطأ كثير من المسلمين الذين ينكرون عُلُوَّ الله عز وجل فوق عرشه ، ويستدلون بقوله تعالى :

﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [الزخرف ٨٤]

ولو عرفوا معنى الإله لَمَا استدلوا بالآية لأن الإله معناه المعبود كما تقدم ، فيكون معناها : وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود . علماً بأن آيات كثيرة تثبت عُلُو الله على عرشه منها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف ٥٤]

[أي علا وارتفع]

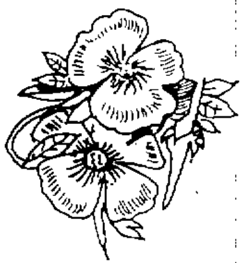
ومن الخطأ أيضاً ما يقوله كثير من المسلمين من أن معنى : (لا إله إلا الله) لا خالق ولا رازق إلا الله ، لأن المشركين كانوا يعترفون بذلك ، ولكنهم يعلمون أن الإله معناه المعبود ، لذلك استكبروا عن قول : لا إله إلا الله كما حكى القرآن عنهم :

﴿ إِنَّهُم كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُم لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَستَكبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُون ﴾ . [الصافات ٣٥]

٤ ـ ومما يساعد على التفسير معرفة قواعد اللغة العربية مما حقه التقديم والتأخير : مثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة ٥]

فقـدَّم المفعـول (إياك) مرة على الفعـل (نعبـد) ومرة على الفعل (نستعـين) للحصر والاختصـاص ، أي لا نعبـد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك يا الله ، ونخصك بالعبادة والاستعانة وحدك .



معرفة الاستنباط

الاستنباط : هو الفهم الدقيق المستنبط من معنى الآية :

١ ـ مثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر ١ ، ٢]

فقد نقل البخاري عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لِمَ تُدخل معنا هذا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رؤيت أنه دعاني إلا ليريهم . قال ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ ؟.

فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له : قال : إذا جاء نصر الله والفتح ، وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . [البخاري ج٦/٩٤]

٢ ـ ومثال آخر ما نقله ابن كثير عن الشافعي في قول الله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [النجم ٣٩]

أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه .

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها الى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أُمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم يُنقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما . وأما الحديث الذى رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به» .

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث **«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»** .

[رواه الترمذي وأبو داود وصححه محقق جامع الأصول]

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من عمله ووقفه ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ [يسٓ ١٢]

والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح :

«من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً» [ج٤/٢٥٨]



أسباب النزول

إن معرفة أسباب النزول مما يساعد على فهم القرآن الكريم :

١ ـ مثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ، أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الاسراء ٥٦ ، ٥٧]

عن ابن مسعود قال : «**كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن فاستمسك الآخرون بعبادتهم فنزلت :**

﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة** ﴾» [متفق عليه]

قال الحافظ : استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن ، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا ، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، وزاد الطبرى من وجه آخر عن ابن مسعود فزاد فيه (والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم) وهذا هو المعتمد في تفسير الآية .

قوله : (يدعون) مفعول (يدعون) محذوف تقديره : أولئك الذين يدعونهم آلهة يبتغون الى ربهم الوسيلة .

وقرأ ابن مسعود (تدعون) على أن الخطاب للكفار وهو واضح .

وقوله : (أيهم أقرب) (معناه يبتغون من هو أقرب منهم الى ربهم) .
[فتح الباري ج٨/٣٩٧]
أقـول : في هذه الآية ردٌّ على الـذين يدعون غير الله من الأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم .

٢ ـ مثال آخر : عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت :
﴿ الذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام ٨٢]
قال أصحابه وأينا لم يظلم ؟ فنزلت :
﴿ إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم ﴾ . [رواه البخاري]

وفي رواية : لما نزلت : «﴿ الذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانهم بظلم ﴾ **شق ذلـك على المسلمـين ، وقـالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ ليس ذلك ، إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه : ﴿ يا بُني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾** [متفق عليه]
قال الحافظ في الفتح : (لم يلبسوا أي لم يخلطوا) .

ومن فوائد الآية والحديث : أن درجات الظلم تتفاوت ، وأن المعاصي لا تسمى شركاً ، وأن من لم يشرك بالله شيئاً فله الأمن وهو مهتد . [ذكره محقق جامع الأصول ج٢ / ١٣٤]

٣ ـ ومثال آخر : ما ذكره البخاري عن عروة قال :
خاصم الـزبير رجلاً من الأنصار في شريج من الحرة فقال النبي ﷺ : «**اِسـق يا زبـير ، ثم أرسـل المـاء إلى جارك ، فقـال**

الأنصاري : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ، فتلوّن وجهه ثم قال : اِسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك» واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .

(في شريج) مسيل الماء وينزل من الجبل إلى مكان اسمه (الحره) .
قال الزبير فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك :
﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلِّموا تسليماً ﴾ .

[البخاري ج ٥/ ١٨٠]

٤ ـ ومثال آخر : عن حذيفة قال : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلاَ تُلقُوا بِأَيدِيكم إِلىٰ التّهلُكَةِ ﴾ . (البقرة ١٩٥)

قال : نزلت في النفقة «أي في تركها» . [أخرجه البخاري]

وفي رواية أبي داود قال : غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مَه مَه . لا إلَه إلا الله ، يُلقي بيديه إلى التهلُكة !

فقال أبو أيوب الأنصاري : إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه ، وأظهر الإسلام قلنا : هلُم نقيم في أموالنا

ونصلحها ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلُكة ﴾ .

فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة : أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية .

[رواه أبو داود بسند صحيح]



معرفة الناسخ والمنسوخ

مما يساعد على فهم القرآن الكريم أيضاً ، ودليله قوله تعالى :
﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾ .
[البقرة ١٠٦]

النسخ : هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر .
فالحكم المرفوع يسمى (المنسوخ) والدليل الرافع يسمى (الناسخ) ويسمى الرفع (النسخ) .

ويطلق الناسخ على الله تعالى كهذه الآية . ويطلق على الآية فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، ويُطلق على الحكم الناسخ لحكم آخر .

١ ـ مثال ذلك : عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال :
لما نزلت هذه الآية : ﴿ وعلى الذين يُطيقونه فِدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر ويَفتدى حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ؛ وفي رواية حتى نزلت الأية :
﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ (البقرة ١٨٤) [متفق عليه]

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قرأ :
﴿ وعلى الذين يُطيقونه فِدية طعامُ مسكين ﴾

قال هي منسوخة .   [أخرجه البخاري]

وذهب ابن عباس الى أنها مُحكمة غير منسوخة .

روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ : ﴿ وعلى الذين يُطيقونه فِدية طعامُ مِسكين ﴾ قال ابن عباس : «ليست منسوخة هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما فيُطعمان كل يوم مسكيناً»

وليس معنى (يُطيقونه) على هذا يستطيعونه . وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة .

٢ ـ ومثال آخر قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبدُوا مَا في أنفُسِكُم أو تُخفُوهُ يُحَاسِبكُم بِهِ الله ﴾ .   [البقرة ٢٨٤]

نسخت بقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلفُ الله نَفساً إلاَّ وُسعَهَا ﴾ .

[البقرة ٢٨٦]

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتي يَأتِينَ الفَاحِشَةَ من نِسائِكُم فَاستَشهِدُوا عَلَيهِنَّ أَربَعَةً مِنكُم ، فَإن شَهِدُوا فَأَمسِكُوهُن في البُيُوتِ حَتى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوتُ أو يَجعَلَ الله لَهُن سَبيلاً ، وَالَّذَانِ يَأتِيَانِهَا مِنكُم فَآذُوهُما فَإن تَابَا وَأصلَحَا فَأَعرِضُوا عَنهُمَا ﴾ .   [النساء ١٥-١٦]

نسختا بآية الجَلْد للبكر في سورة النور :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّاني فَاجلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنهُمَا مِائَةَ جَلدَةٍ ﴾ . [النور ٢]

بالجَلْد للبكر ، وبالرجم للثيّب الوارد في السنة :

«.. البِكر بالبِكر جَلد مائة ، ونفيُ سَنَة ، والثيّب بالثيّب جَلْد مائة والرجم» . [رواه مسلم]

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُن مِنكُم عِشرُون صَابِرُون يَغلِبُوا مِائَتَين ﴾ . [الأنفال ٦٥]

نسخت بقوله : ﴿ ألآن خَفَّفَ الله عَنكُم وَعَلِم أنَّ فِيكُم ضَعفاً ، فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغلِبُوا مِائَتَين ﴾ . [الأنفال ٦٦]

الحكمة في النسخ

١ ـ مراعاة مصالح العباد .

٢ ـ تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة ، وتطور حال الناس .

٣ ـ إبتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه .

٤ ـ إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب وإن كان إلى أخف ففيه سهولة التيسير .

[انظر مباحث في علوم القرآن للقطان]

القرآن المكي والمدني

إن مما يساعد على فهم القرآن وتفسيره معرفة القرآن المكي والمدني ، لذلك اهتم به الصحابة ومن بعدهم حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : «**والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه**» . [رواه البخاري]

والصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون بما تعلموه من القرآن ، ولذلك قال ابن مسعود : «**كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن**» .[صحح إسناده محمود شاكر]

وهذا العمل تطبيق لقول رسول الله ﷺ القائل :

«**اقرأوا القرآن واعملوا به ، ولا تأكلوا به . .**» . [صحيح رواه أحمد]

وبسبب هذا العلم بالقرآن الكريم نصر الله رسوله وصحابته من بعده ، ولما ترك المسلمون اليوم العمل بالقرآن الكريم تأخر النصر عنهم حتى يعودوا إلى تعلم كتاب ربهم والعمل به ، فيعود النصر إليهم .

معرفة المكي والمدني :

اعتمد العلماء على معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين :

١ ـ المنهج السماعي النقلي : ويستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين

تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل ، إذ لم يرد عن الرسول ﷺ قول ، لأنه لم يؤمر به .

مثال ذلك ما يجده القارىء في أول السورة :

(سورة مكية) أو (سورة مدنية) .

٢ ـ **المنهج القياسي الاجتهادي** : ويستند إلى خصائص المكي والمدني ، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني ، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي ، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد في السورة خصائص المدني قالوا إنها مدنية .

مثال ذلك قالوا : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية فهي مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حَدٌّ فهي مدنية .

[انظر علوم القرآن للقطان]



تعريف القرآن المكي والمدني

١ ـ القرآن المكي : هو الذي نزل به الوحي على رسول الله ﷺ قبل الهجرة وإن كان بغير مكة .

٢ ـ القرآن المدني : هو الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ بعد الهجرة ، وإن كان بمكة ، كالذي نزل بحجة الوداع .

مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ اليوم أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمتِي وَرَضِيتُ لَكُم الإسلاَمَ دِيناً ﴾ . [المائدة ٣]

«جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : فأي آية ؟ قال : ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾ فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه ، والمكان الذي نزلت فيه : نزلت على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة» [متفق عليه]

أقول : في هذه الآية رد على القائلين بالبدعة الحسنة في الإسلام وقد قال الإمام مالك من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول :

﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ الآية .

فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً .

خصائص القرآن المكي

الغالب في المكي من حيث الموضوع الاهتمام بما يلي :

١ ـ الدعوة إلى توحيد الإله الذي أنكره المشركون كما حكى القرآن عنهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات ٣٥ ـ ٣٦]

لأن العربي كان يفهم معنى (لا إله إلا الله) وأن من قالها ترك عبادة غير الله ، أما بعض المسلمين اليوم فلا يفهمون معناها وهو (لا معبود بحق إلا الله) ولذلك يقولونها بألسنتهم وينقضونها بأفعالهم وذلك حينما يدعون غير الله ، أو يتحاكمون إلى غير شرع الله ، أو ينذرون لغير الله ، وغير ذلك من الأعمال الشركية .

٢ ـ التحذير من الشرك كدعاء غير الله ، كقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .[أي المشركين] [يونس ١٠٦]

٣ ـ إبطال عبادة الأولياء بدعوى تقربهم بها إلى الله ، وطلب شفاعتهم عند الله ، حيث قال الله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ . [الزمر ٣]

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ

شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله قُل أَتُنَبِئُون الله بِمَا لاَ يَعلمُ فِي السَّموات وَلاَ فِي الأَرض سُبحَانَهُ وَتَعالىٰ عَمَّا يُشرِكُونَ ﴾ . [يونس ١٨]

فحكم بالكفر والشرك على كل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله كالدعاء ، ولو كان قصده التقرب إلى الله وطلب الشفاعة منهم عند الله ، وسرت هذه الفكرة إلى كثير من المسلمين اليوم ، مع الأسف الشديد ! فإذا سألت مسلماً : لماذا تدعو هؤلاء الأولياء ؟

قال لك : أريد التقرب بهم إلى الله ، وطلب شفاعتهم عند الله !

٤ ـ الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، وبعث الناس من قبورهم للحساب ، حيث أنكر ذلك المشركون في مكة ، وقد رد الله عليهم بقوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُل بَلَىٰ وَرَبِي لَتُبعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَؤُن بِمَا عَمِلتُم وَذلِكَ عَلَىٰ الله يَسِيرٌ ﴾ . [التغابن ٧]

٥ ـ التحدي للعرب ـ رغم فصاحتهم ـ أن يأتوا بسورة مثل هذا القرآن ، وقد تحداهم الله تعالى بقوله :

﴿ أَم يَقُولُون افتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثلِهِ . . ﴾ . [يونس ٣٦]

٦ ـ إيراد قصص المكذبين الغابرين : كقوم عاد ، وثمود ، وقوم صالح ، وشعيب ، وفرعون ، وغيرهم . قال الله تعالى مهدداً مشركي مكة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد ، إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ، ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ، وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ، ٱلَّذِينَ طَغَواْ فِى ٱلْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا

ٱلْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ . [الفجر ٦ - ١٤]

٧ - الحث على الصبر : كقوله تعالى :

﴿ وَاصبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ، وَاهجُرهُم هَجراً جَميلاً ﴾ [المزمل ١٠]

٨ - جهاد المشركين بالقرآن ، وجداهم بالحُسنى : كقوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ . [الفرقان ٥٢]

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ ﴾ . [النحل ١٢٥]

٩ - إقامة الأدلة الكونية والعقلية على توحيد الربوبية الذي يستلزم منه توحيد الألـوهية مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت ، وَإِلَى السَّماءِ كَيفَ رُفِعت ، وَإِلَى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَت ، وَإِلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَت ﴾ . [الغاشية]

١٠ - يمتاز القرآن المكي غالباً في أسلوبه بوجود ألفاظ شديدة القرع على المسامع تقذف حروفها الوعيد والعذاب :

مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة ١]

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ [عبس ٣٣]

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ ﴾ [الغاشية ١]

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة ١]

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ . [العلق ١٥]

فحرف [كلا] للردع والزجر . [انظر علوم القرآن للقطان]

خصائص القرآن المدني

الغالب في القرآن المدني من حيث الموضوع والاهتمام بما يلي :

١ ـ الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله : لأن المسلمين هاجروا إلى المدينة وأقاموا دولة الإسلام فيها فهم بحاجة للدفاع عن دينهم ودولتهم ، لذلك نرى القرآن المدني يشجعهم على القتال قائلاً :

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَموَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . . ﴾ [التوبة ١١١]

٢ ـ يتناول أحكام الإسلام : مثل حكم الربا الذي أعلن الله الحرب على فاعليه حيث قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِبا إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ فَإِن لَّم تَفعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَربٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبتُم فَلَكُم رُءُوسُ أَموَالِكُم لا تَظلِمُون وَلَا تُظلَمُونَ ﴾ . [البقرة ٢٧٨]

٣ ـ الحكم في الحدود : كحد الزنا والسرقة وغيرها من الحدود التي تضمن الأمن والاستقرار في المجتمع ، كقول الله تعالى في حد فاعل الزنى :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُمَا مِائَةَ جَلدَةٍ ﴾ [النور ٤]

وقوله في حد السرقة :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقطَعُوا أَيدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِن

الله . . ﴾ . [المائدة ٣٨]

٤ ـ فضح المنافقين وكشف دخيلتهم وذكر أوصافهم : كقول الله تعالى في كشف نفاقهم :

﴿ إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشهدُ إِن الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون ﴾ . [سورة المنافقون]

٥ ـ إسكات أفواه أهل الكتاب من اليهود وغيرهم ومجادلتهم لإقامة الحجة عليهم : كقوله تعالى :

﴿ وَلاَ تُجَادلُوا أَهلَ الكِتَاب إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم ﴾ . [العنكبوت ٤٦]

٦ ـ تحقيق النصر للمؤمنين في غزواتهم مع أعدائهم : كقول الله تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ [آل عمران ٢٣]



فوائد العلم بالمكي والمدني

١ ـ الاستعانة به في تفسير القرآن : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم .

٢ ـ تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله ، فإن لكل مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله ، بما يلائم نفسية المخاطب ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها . . . ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين أو المشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

٣ ـ الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية ، فالقرآن هو المرجع الأصيل لهذه السيرة . [انظر مباحث في علوم القرآن]

عدد السور المكية : ٨٢ سورة ، والسور المدنية : ٢٠ سورة ، وعدد المختلف فيها : ١٢ سورة ، ومجموعها : ١١٤ سورة ، وعدد آياته : ٦٢٣٦ آية .

الآيات المكية والمدنية المتداخلة

الآيات المكية في السور المدنية : لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية ، وفي المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أغلبي حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتي في التسمية : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية ، كما نجد ذلك في المصاحف ـ ومن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية «سورة الأنفال مدنية» واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى : ﴿ **وَإِذ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ أَو يَقتُلُوكَ أَو يُخرِجُوكَ وَيَمكُرُون ويَمكُرُ الله والله خَيرُ المَاكِرِينَ** ﴾ .
[سورة الأنفال ٣٠]

قال مقاتل هذه الآية نزلت بمكة وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة .



متى نعمل بالقرآن المكي والمدني ؟

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن القرآن المكي الذي يدعو إلى الصبر على الأذى ، وعدم مجابهة الكفار يطبق في حالة ضعف المسلمين ، والقرآن المدني الذي يدعو إلى الجهاد والقوة يطبق في حالة قوة المسلمن ، وذلك حين قال :

«وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه ، وصارت آية الصَّغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه ، وبهذه الآيات ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله ﷺ وعلى عهد خلفائه الراشدين وكذلك هو إلى يوم قيام الساعة ، لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام . فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذى الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين ، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» . [الصارم المسلول ٢٢١]

أقول : يؤيد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قوله تعالى :

﴿ قُل لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرجُونَ أَيَّامَ الله لِيجزِيَ قَوماً بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ ﴾ .
[الجاثية ١٤]

يأمر الله رسوله أن يقول للمؤمنين أيام ضعف المسلمين في مكة قبل الهجرة اِصفحوا وتجاوزوا عمن يؤذيكم من الكفار ، ولا تردوا الأذى بمثله ، وهذا يدل على مشروعية التسامح مع الكفرة في حال ضعف المسلمين .

١ ـ ليت الجماعات الإسلامية طبقوا ما جاء في القرآن المكي الذي يدعو إلى الصبر والعفو حتى يأتي الله بالنصر .

٢ ـ أن نطبق الأحكام الشرعية على أنفسنا ، إذ رأينا البعض يدعو إلى الجهاد وحكم الإسلام ، وهو لا يطبقه على نفسه .

٣ ـ أن ندعو حكام المسلمين وأعوانهم إلى تطبيق حكم الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين كما فعل موسى وهارون مع فرعون .

٤ ـ أن يكون جهادنا في حالة الضعف بالمال واللسان عملاً بقوله ﷺ :
«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» .

[صحيح رواه أبو داود]

٥ ـ أن ندعو الأُمة أفراداً وجماعات إلى تطبيق حكم الإسلام على أنفسهم ، حتى ينشأوا على حبه وإقامته على أرضهم ، وقد قال أحد الدعاة المعاصرين :

«أقيموا دولة الإسلام في صدوركم تقم لكم في أرضكم» .

٦ ـ العقيدة أولاً أم الحاكمية ؟ أجاب الداعية الكبير محمد قطب على هذا في محاضرة ألقاها في دار الحديث المكية ، وهذا نصه :

س ـ البعض يقول : إن الإسلام سيعود من قبل الحاكمية ، والبعض الآخر يقول : سيعود الإسلام عن طريق تصحيح العقيدة والتربية الجماعية ، فأيهما أصح ؟

ج ـ من أين تأتي حاكمية هذا الدين في الأرض إن لم يكن دعاة يصححون العقيدة ، ويؤمنون إيماناً صحيحاً ، ويُبتلون في دينهم فيصبرون . ويجاهدون في سبيل الله ، فيحكم دين الله في الأرض ، قضية واضحة جداً ، ما يأتي الحكم من السماء ، ما يتنزل من السماء ، وكل شيء يأتي من السماء ، لكن بجهد من البشر فرضه الله على البشر :

﴿ وَلَو يَشَآء الله لاَنتَصَرَ مِنهُم ، وَلكن لِيَبلُو بَعضَكُم بِبَعض ﴾ .
[سورة محمد ٤]

لابد أن نبدأ بتصحيح العقيدة ، وتربية جيل على العقيدة الصحيحة ، جيل يُبتلى فيصبر على البلاء ، كما صبر الجيل الأول .

نزول القرآن مفرَّقا والحكمة منه

لقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ متفرقاً حسب الوقائع والمناسبات وفي ذلك حِكَم بالغة :

١ - تثبيت قلب النبي ﷺ : وهـذه الحكمـة هي التي رد الله بها على اعتراض الكفار في نزول القرآن متفرقاً بقوله تعالى .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَاحدةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلناهُ تَرتِيلاً ﴾ . [الفرقان ٣٢]

قال العلامة أبو شامة : «فإن قيل ما السر في نزوله مُنجَّماً ؟ وهلا أُنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة ﴾ يعنون : كما أنزل على مَن قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي أنزلناه مُفرَّقاً ﴿ لِنثبت به فؤادك ﴾ أي لنقوّي به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَك إليه ، وتجدد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل» .

[انظر الإتقان للسيوطى ج ١/٤٢]

٢ ـ التحدي والإعجاز : لقد اعترض الكفار على نزول القرآن مُفرَّقاً ، كما حكى القرآن عنهم ، وبما أنهم قد عجبوا من نزوله مُفرقاً ، فإن الله تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا ، وإن تحديهم به مُفرَّقاً أقوى في الإعجاز ، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة واحدة فمن يعجز عن أن يأتي بسورة مثله مُفرَّقاً يعجز بالأولى من الإتيان بمثله جملة واحدة .

ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء في بعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن «**فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً**» . [أخرجه ابن أبي حاتم]

٣ ـ تيسير حفظ القرآن وفهمه : إن نزول القرآن مفرقاً يسهل للناس حفظه وفهمه ، ولا سيما إذا كانوا أُميين كالعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فكان نزوله مُفرقاً خير عون لهم على حفظه في صدورهم ، وفهمهم لآياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ، وتدبروا معانيها ، وعملوا بها ، لذلك قال عمر رضي الله عنه : «**تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً**» .

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان]

٤ ـ تنشيط نفوس المؤمنين لقبول ما نزل من القرآن والعمل به :
حيث يتشوق المسلمون إلى نزول الآية ، ولا سيما عند الحاجة إليها

كما في آيات الإفك واللعان .

٥ ـ مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع :

كان القرآن الكريم يتدرج في نزوله ، ويبدأ بالأهم فالمهم :

أ ـ لقد اهتم القرآن الكريم أولاً بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار ، ويُقيم الأدلة على ذلك ليستأصل العقائد الفاسدة من نفوس المشركين ، ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

ب ـ ثم بدأ يأمر بمحاسن الأخلاق ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر ، ويبين قواعد الحلال والحرام في المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء وغير ذلك .

ج ـ كان القرآن ينزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله ، وتشجيعهم على ذلك .

[انظر مباحث في علوم القرآن]

الأمثلة على نزوله بالتدريج

١ ـ نزلت سورة الأنعام ـ وهي مكية ـ تبين أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد ، وتحذر من الشرك ، وتوضح ما يحل وما يحرم : قال تعالى :

﴿ قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أَلَّا تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً وَبِالوالِدَينِ إِحسَاناً ، ولا تَقتُلُوا أَولَادكُم مِن إِملَاقٍ نَحنُ نَرزُقُكم وَإِيَّاهُم ﴾ . [الأنعام ١٥١]

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام في المدينة ، كآية المداينة ، وتحريم الربا ، وأصل الزنى حُرم بمكة :

﴿ وَلَا تَقرَبُوا الزِنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . [الاسراء ٣٢]

والعقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

٢ ـ وأوضح مثال لذلك التدرج في التشريع تحريم الخمر ، فقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرات النَّخِيلِ وَالأَعنَاب تَتَّخِذُون مِنهُ سَكَراً وَرِزقاً حَسَناً . . ﴾ . [النحل ٦٧]

فإنه وصف الرزق بالحسن دون السَّكَر إشارة إلى ذم الخمر ، ثم نزل قوله تعالى :

﴿ يَسئَلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسرِ قُل فِيهِمَا إِثمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثمُهُمَا أَكبَرُ مِن نَّفعِهِمَا ﴾ . [البقرة ٢١٩]

فقـارنت الآية بين منـافـع الخمـر الوقتية ، وبين مضارها في إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر الجسم ، وفساد العقل ، وضياع المـال ، وإثـارة لبواعث الفجور والعصيان ، ثم نفرت الآية من الخمر بترجيح المضار على المنافع . ثم نزل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُم سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ . [النساء ٤٣]

فعرفوا تحريمه وقت الصلوات ثم نزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزلَامُ رِجسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ فَاجتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ ﴾ . [المائدة ٩٠]

فكان هذا تحريماً للخمر في الأوقات كلها .

ويوضح هذه الحكمة ما قالته عائشة رضي الله عنها :

«إنما نزل أول ما نزل سورة من المفَصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل «لا تزنوا» لقالوا : لا ندَع الزنا أبداً» . [أخرجه البخاري]



من خصائص القرآن الكريم

١ ـ القرآن كلام الله المنزل على رسولنا محمد ﷺ المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس .

٢ ـ التعبد بتلاوته وقراءته في الصلاة وأخذ الأجر على قراءته لقول الرسول ﷺ : «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : [الٓمٓ] حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف**» . [صحيح رواه الترمذي]

وقد ورد في فضل قراءة سوره أحاديث صحيحة كسورة (البقرة وآل عمران والملك ، . والكهف ، والمعوذات) وغيرها .

٣ ـ الصلاة لا تصح إلا بالقرآن لقوله ﷺ :

«**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» . [متفق عليه]

٤ ـ القرآن سلِم من التحريف والتبديل لقوله تعالى :

﴿ **إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ وَإِنّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر ٩]

أما بقية الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل فقد حرفها أصحابها .

٥ ـ القرآن سليم من التناقض لقوله تعالى :

﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُون القُرءَانَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافاً كَثِيراً** ﴾ . [النساء ٨٢]

٦ ـ تيسير حفظه عن ظهر قلب ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَقد يَسّرنَا القُرءانَ لِلذِكرِ ﴾ . [القمر ٤٠]

٧ ـ القرآن الكريم معجز لا يستطع أحد أن يأتي بسورة مثله ، وقد تحدى الله العرب فعجزوا ، قال الله تعالى :

﴿ أم يَقُولُونَ افترَاهُ قُل فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثلِهِ ﴾ . [يونس ٣٨]

٨ ـ تنزل السكينة والرحمة على قارىء القرآن لقوله ﷺ :

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده» . [رواه مسلم وغيره]

٩ ـ القرآن للأحياء لا للأموات : قال الله تعالى عن القرآن :

﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ . [سورة يٓس ٧٠]

وقوله تعالى : ﴿ وَأن لَّيسَ لِلإنسَانِ إلَّا مَا سَعَى ﴾ . [النجم ٣٩]

وقد استنبط الإمام الشافعي من هذه الآية أن القراءة لا يصل ثواب إهدائها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم .

وأما قراءة الولد لأبويه فيصل ثواب القراءة لأن الولد من سعي أبيه كما ورد في الحديث .

١٠ ـ القرآن شفاء القلوب من أمراض الشرك والنفاق وغيرها ، وفيه بعض الآيات والسور لشفاء الأبدان : كسورة الفاتحة ، والمعوذات ، وغيرها مما ثبت في السنة الصحيحة .

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَـا النَّـاسُ قَد جَاءَتكُم مَّوعِـظَةٌ مِن رَّبِكُم وَشِفَـاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور ، وَهُدىً وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِين ﴾ . [يونس ٥٧]

﴿ وَنُنَزِلُ مِن القُرءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ ﴾ .

[الاسراء ٨٢]

١١ ـ القرآن يشفع لصاحبه لقول الرسول ﷺ :

«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» .

[رواه مسلم]

القرآن مهيمن على الكتب التي قبله ، قال الله تعالى :

﴿ وَأَنـزَلنَـا إِلَيكَ الكِتَاب بِالحَقِ مُصَدقاً لِمَا بَينَ يَدَيهِ مِن الكِتَاب وَمُهَيمناً عَلَيهِ ﴾ . [المائدة ٤٨]

قال ابن كثير بعد أن ذكر أقوالاً في تفسير المهيمن :

«وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، هذا الكتاب العظيم الذي أُنزل آخر الكتب وخاتمها ، وأشملها عظماً ، وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل الله بحفظه» . [تفسير ابن كثير ٢ / ٦٥]

١٢ ـ القرآن الكريم صادق في أخباره ، عدل في أحكامه ، قال الله

تعالى :

﴿ وَتَمَّت كَلِمَتُ رَبكَ صِدقاً وَعَدلاً لاَّ مُبَدل لِكَلِمَاتِهِ ﴾ .

[الأنعام ١١٥]

قال قتادة : صدقاً فيما قال ، وعدلاً فيما حكم ، يقول صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب ، فكل ما أخبر به حق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال تعالى :

﴿ يَأمُرُهُم بِالمَعرُوفِ وَيَنهَاهم عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائثَ ﴾ (الآية ١٥٧ من سورة الاعراف)

[انظر تفسير ابن كثير ج ٢/١٦٧]

١٣ ـ القصة في القرآن حقيقة لا خيال : فقصة موسى مع فرعون واقعة قال تعالى :

﴿ نَتلُوا عَلَيكَ مِن نَّبَأ مُوسَىٰ وَفِرعَون بِالحَقِ ﴾ . [القصص آية ٣]

ومثلها قصة أصحاب الكهف ، فهي حقيقة ، قال تعالى :

﴿ نحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ نَبَأهُم بِالحَق ﴾ . [الكهف ١٣]

وجميع ما قص الله في القرآن حق ، قال تعالى :

﴿ إنَّ هَذا لَهُوَ القَصصُ الحَقُّ ﴾ . [آل عمران ٦٢]

١٤ ـ القرآن يجمع بين مطلب الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ وَابتَغ فِيمَا آتَاكَ الله الدَّار الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنيَا ، وَأَحسِن كَمَآ أَحسَنَ الله إلَيكَ ﴾ . [القصص ٧٧]

١٥ ـ القـرآن فيه كل ما يحتـاجـه البشر من عقـائد وعبادات وأحكام ومعـامـلات وأخلاق وسياسة واقتصاد وغير ذلك من أمور الحياة اللازمة للمجتمع ، قال تعالى :

﴿ مَا فَرَّطنَا في الكِتَاب مِن شيَءٍ ﴾ . [الأنعام ٣٨]

وقال تعالى :

﴿ وَنَزَّلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُل شيَءٍ ، وَهُدًى وَرَحمَةً وَبُشرَىٰ لِلمُسلِمِينَ ﴾ . [النحل ٨٩]

أ ـ قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى :

﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت ما يقع فيه من الحوادث ، وقيل : أي في القرآن : ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن ، إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجملة يُتلقى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع ، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب . [ج ٦/ ٤٢٠]

ثم قال : فصـدق خبر الله بأنـه ما فرَّط في الكتاب من شيء إما تفصيلاً أو تأصيلاً .

ب ـ وقال الطبري في تفسير قوله تعالى :

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ يقول :

نزل عليك يا محمد هذا القرآن تبياناً لكل ما بالناس إليه الحاجة من معـرفـة الحـلال والحرام والثواب والعقاب [وهدى] من الضلالة

[ورحمة] لمن صدق به ، وعمل بما فيه من حدود الله ، وأمره ونهيه ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، [وبشرى للمسلمين] يقول : وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد ، وأذعن له بالطاعة يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة ، وعظيم كرامته .

[ج ١٤/١٦١]

١٦ ـ القرآن الكريم له تأثير قوي على النفوس من الإنس والجن .

أ ـ أما الإنس فقد تأثر به كثير من المشركين في أول الإسلام ، ودخلوا به ، وفي العصر الحاضر التقيت بشاب نصراني دخل في الإسلام ، وذكر لي أنه تأثر بسماعه القرآن من الأشرطة .

ب ـ وأما الجن فقد قال نفر منهم :

﴿ إِنَّا سمِعنَا قُرءَاناً عَجَباً ، يَهدِىَ إِلَى الرُّشدِ فَأمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشرِكَ بِرَبنا أَحَداً ﴾ . [الجن ١-٢]

ج ـ وأما المشركون فكثير منهم تأثر بالقرآن عند سماعه ، حتى قال الوليد ابن المغيرة : (فوالله ماهو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون ؛ وإن قوله من كلام الله ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه) .

[انظر ابن كثير ج ٤/٤٤٣]

١٧ ـ الذي يتعلم القرآن ويعلمه للناس هو خيرهم لقوله ﷺ :

«خيْرُكم مَن تعلّم القرآن وعَلّمه» . [رواه البخاري]

١٨ ـ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البرَرة ، والذي يقرؤه ويُتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» . [متفق عليه]

(السفرة : الملائكة) .

١٩ ـ القرآن جعله الله هادياً ومبشراً فقال :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرءَانَ يَهدِى لِلَّتِي هِىَ أَقوَمُ وَيُبَشرُ الْمُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعمَلُون الصَّالِحَات أَنَّ لَهُم أَجرَاً كَبِيراً ﴾ .

[الاسراء ٩]

٢٠ ـ القرآن يسكن القلوب ، ويثبت اليقين ، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين .

قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ الله أَلاَ بِذِكرِ الله تَطمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ . [الرعد ٢٨]

فإذا أصاب المسلم هم أو حزن أو مرض فعليه أن يسمع القرآن الكريم من مقرىء حسن الصوت كالمنشاوى وغيره ، فقد قال ﷺ : «حسنوا القرآن بأصواتكم ، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً» . [صحيح ، وانظر صحيح الجامع للألباني]

٢١ ـ القرآن الكريم يدعو في أكثر سوره إلى التوحيد ، ولا سيما توحيد الإله في العبادة والدعاء والاستعانة : ففي أوله في سورة الفاتحة تجد قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

(أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك) ، وفي آخره في سورة الاخلاص ، والفلق ، والناس ، تجد التوحيد ظاهراً في قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ وفي بقية سور القرآن كثير من آيات التوحيد :

ففي سورة الجن تقرأ قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ . [الجن ٢٠]

﴿ وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله فَلَا تَدعُوا مَعَ الله أحداً ﴾ . [الجن ١٨]

والعجيب أن أحد المشايخ وجد هذه الآية مكتوبة على باب المسجد ، فقال : هذه آية وهابية ، لأنها تنهى عن دعاء غير الله !!

وقال لي دكتور صوفي : إن آية ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهابية ، لأنها تدعو إلى الاستعانة بالله وحده !!

٢٢ ـ القرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية الأول أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإيمان والتوحيد والعلم قال الله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَات إِلَى النُّورِ بِإذنِ رَبهِم إِلَىٰ صِرَاط العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ . [ابراهيم ١]

٢٣ ـ القرآن الكريم يخبر عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا

بالوحي كقوله تعالى : ﴿ سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .
[القمر ٤٥]

وقد هُزم المشركون يوم بدر وهربوا من المعركة . وأخبر القرآن عن مغيبات كثيرة قد تحققت فيما بعد .



القرآن كتاب جامع شامل

القرآن الكريم تطرق لموضوعات شتى هامة كالأمر والنهي ، والوعد والـوعيد ، والحكم والأمثـال ، والوعظ والقصص ، وذكر المغيبات ، والعلوم الكونية ، ومظاهر الخلق ، ودلائل البعث والنشور ، وغير ذلك من الأمور المهمة .

وحين نتدبر القرآن في كل هذه المواضيع والأغراض نجدها في منتهى البلاغة والبراعة وغاية الانسجام والتوافق والالتئام ، أوله يشبه آخره ، ويشبه بعضه بعضاً في الحسن ، ولا يمل قارؤه ، ولا يسأم مجوده ، ولا يشك متدبره ، يزيد المتقين هدى ، والمؤمنين إيماناً ، ذلك أنه في غاية الترابط والتلاحم ، أوله يصدق آخره .

إن نظم القرآن وترتيبه على الوجه المعهود ، المباين والمخالف لأنظمة الكتب المؤلفة ، وهو مع ذلك متناسب الأي والسـور في المعاني والمباني والموضوعات ، كأنه وحدة واحدة متكاملة ـ دليل مادي على أنه ليس بكتاب وضعي بشري ، يجلس إليه واضعه من الناس ، فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلاً ، ولكل مجموعة من فصوله المتتابعة بابـاً ، بل هو مجموعة هدايات من الوحي الإلهي اقتضتها الحكمة ، ودعت إليها المصلحة ، لا تجد فيها خللاً ولا تناقضاً ، بل تأخذ برقاب بعضها كأنها موضوع واحد .

[انظر رسالة موهم الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم للشيخ ياسر أحمد علي الشمالي]

يقول الشيخ الزرقاني : إن هذا المزيج الطريف الذي نجده في كل سورة ، أو طائفة منه ، له أثر بالغ في التذاذ قارئه ، وتشويق سامعه ، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه ، فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة ، يتنقل الإنسان بين أفيائها ، متمتعاً بكل الثمرات ، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة ، يُشبع الجائع حاجته بما فيها من جميع الألوان . [انظر مناهل العرفان ج ١ / ٨٠]

ويقول الدكتور محمد عبدالله دراز : إنك لتقرأ السورة الطويلة المنسجمة ، يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً ، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً ، فإذا هي لو تدبرت بُنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أُسس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد ، قد وضع رسمه مرة واحدة ، لاتحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام .

ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية .

[انظر كتاب النبأ العظيم / ١٥٥]

القرآن سليم من الاختلاف

قال الله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُون القُرءَانَ ، وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافًا كَثِيراً ﴾ . [النساء ٨٢]

١ ـ قال الطبري في تفسيرها : يعني جل ثناؤه بقوله :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد : كتاب الله ، فيعلمون حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك ، وإن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم لاتساق معانيه ، وائتلاف أحكامه ، وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق ، وشهادة بعضه بعضاً بالتحقيق ، فإن كان ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه ، وتناقضت معانيه ، وأبان بعضه عن فساد بعض .

وأسند ابن جرير عن قتادة : (أي قول الله لا يختلف ، وهو حق ليس فيه باطل ، وإن قول الناس يختلف) .

وأسند عن ابن زيد : (إن القرآن لا يكذب بعضه بعضاً ، ما جهل الناس من أمر فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم ، وقرأ :

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

قال : فحق على المؤمن أن يقول : (كل من عند الله) ويؤمن

بالمتشابه ولا يضرب بعضه ببعض ، وإذا جهل أمراً ولم يعرفه أن يقـول : (الذي قال الله حق ، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولاً وينقضه ، ينبغي أن يؤمن بحقيقة ما جاء من الله) .
[انظر تفسير الطبري ج٨/٥٦٧]

٢ ـ وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية : يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القـرآن ، ونـاهياً لهم عن الإعـراض عنـه ، وعن تفهم معانيه المحكمة ، وألفـاظه البليغة ، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حق من حق ، ولهذا قال تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾

ثم قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختـلافـاً أي اضـطرابـاً وتضـاداً كثـيراً ، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم حيث قالـوا : ﴿ آمنـا به كل من عنـد ربنـا ﴾ أي محكمـه(١) ومتشـابهـه(٢) حق ، فلهـذا ردوا المتشـابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا ، ولهذا مدح الله تعالى الراسخين ، وذم الزائفين . [انظر ابن كثير ج١/٥٢٩]

(١) المحكم : أن يكون معنى الآية ظاهراً كقوله تعالى :

﴿ وأحل الله البيع ﴾ .

(٢) المتشابه نوعان : حقيقي ، وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقيقة صفات الله ، وكيفيتها ، لكن معناها معلوم كقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فالاستواء معلوم كما قال الامام مالك ، وقد ورد تفسيره في البخاري عن التابعين بالعلو والارتفاع ، وكيفية الاستواء غير معقولة .

النوع الثاني : نسبي ، وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فأهل التعطيل فهموا منها نفي الصفات عن الله ، وادعوا أن ثبوتها يسلتزم المشابهة ، وأعرضوا عن الآيات التى تثبت الصفات لله ، علماً بأن اثبات المعنى لا يستلزم المشابهه .

٣ ـ وقال الشاطبي وإذا ثبت أن القرآن في نفسه لا اختلاف فيه ، صح أن يكون حكماً بين جميع المختلفين ، لأنه إنما يقرر معنى هو الحق ، والحق لا يختلف في نفسه ، فكل اختلاف صدر من المكلفين فالقرآن هو المهيمن عليه ، قال تعالى :

﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

فهذا دليل على أن الحق فيه واضح ، وأن البيان فيه شاف ، ولا شيء بعده يقوم مقامه ، وهكذا فعل الصحابة .

[انظر الاعتصام ج ٢ / ٣٠٩]

أسماء القرآن وأوصافه

١ ـ لقد سمى الله القرآن بأسماء كثيرة منها :
القرآن ، والفرقان ، والكتاب ، والتنزيل ، ولها أدلة من القرآن .
٢ ـ ووصف الله القرآن بأوصاف في آياته منها أنه : نور ، وهُدى ، وموعظة ، وشفاء ، ورحمة ، ومبارك ، ومبين ، وبُشرى ، وعزيز ، ومجيد ، وبشير ، ونذير ، وكريم ، وأحسن الحديث .

قال تعالى يصف كتابه العزيز :

﴿ الله نَزَّل أحسَنَ الحَـدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إِلَىٰ ذِكرِ الله ذَٰلِكَ هُدَى الله يهدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ . [سورة الزمر ٢٣]

(أحسن الحديث : أبلغه وأصدقه وأوفاه القرآن) .
(كتاباً متشابهاً : في إعجازه وهدايته وخصائصه ، يشبه بعضه بعضاً في الحسن)
(مثاني : مكرراً فيه الأحكام والمواعظ والقصص والآداب)
(تقشَعِرُّ منه : تضطرب وترتعد من قوارعه) .
(تلين جلودهم : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة) .

[انظر كلمات القرآن لحسنين محمد مخلوف]

٣ ـ وقد ورد وصفه في أحاديث فيها كلام إلا أن معناها صحيح :

فروي عن الرسول ﷺ أنه قال :

أ ـ «إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه ، لا يُعوج فيُقَوَّم ، ولا يزيغ فيُستعتَب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يَخلَق عن كثرة الرد ، أُتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول بـ (ألم) ، ولكن بألفٍ عشراً ، وباللام عشراً ، وبالميم عشراً» . [صححه الحاكم ، وضعفه الذهبي]

ب ـ «ألا إنها ستكون فتن ، قلت وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، وهو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى بغيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يَخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعنَا قُرءَاناً عَجَباً ﴾ . [سورة الجن ١]
هو الذي من قال به صدق ، ومن حكم به عدَل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم» .

[رواه الترمذي وقال محقق جامع الأصول في سنده مجهول]

معنى التأويل وأنواعه في القرآن

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أنزلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ ءآيَاتٌ مُّحكَمَاتٌ هُنَّ أُم الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ ؛ فَأَمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهَ ابتِغَاءَ الفِتنَةِ وابتِغَاءَ تَأوِيلِه ، وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إلا الله . وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِنَا ، وَمَا يَذَّكَرُ إلَّا أُولُوا الأَلبَابِ ﴾ . [آل عمران ٧]

الأول : التأويل بمعنى التفسير ، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه ، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن جرير الطبري وأمثاله من المفسرين .

الثاني : التأويل : هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاتـه وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات ، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الأخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر .

١ ـ فالذين يقولون بالوقف على قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ ويجعلون ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ استئنافاً ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني ، أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، فحقيقة ذات الله وكنهها ، وكيفية أسمائه وصفاته ،

وحقيقة الميعاد لا يعلمها إلا الله .

٢ ـ والذين يقولون بالوقف على قوله :

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ على أن الواو للعطف ، وليست للاستئناف ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الأول وهو التفسير ، فإذا ذكر عن مجاهد أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره .

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين القولين في النهاية ، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل . [علوم القرآن للقطان]

٣ ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : التفسير على أربعة أنواع :

١ ـ فتفسير لا يعذر أحد في فهمه (كمعرفة الحلال والحرام) .

٢ ـ وتفسير تعرفه العرب من لغاتها (كمعنى الإله : وهو المعبود) .

٣ ـ وتفسير يعلمه الراسخون في العلم(كمعنى الاستواء : العلو) .

٤ ـ وتفسير لا يعلمه إلا الله (كمعرفة كيفية الذات والصفات) .

[ذكره ابن كثير]

التأويل المـذموم

الثالث : التأويل المذموم : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، وهو الذي عناه أكثر المتأخرين في تأويل نصوص الصفات ، وإنما لجأوا إليه مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين في زعمهم ؛ وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد ، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يداً ، لأن للمخلوقين يداً فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة ، وذلك تناقض منهم ، لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في المعنى الذي نفوه ، لأن العباد لهم قدرة أيضاً . فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقاً ممكناً كان إثبات اليد لله حقاً ممكناً أيضاً ، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعاً لما يلزمه من التشبه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعاً كذلك ، فلا يجوز أن يقال : إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح . وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يشتبه عليهم معناه على غيرهم تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم .

[انظر علوم القرآن للقطان]

موقف الراسخين في العلم
والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ . [آل عمران ٧]

وقال في الراسخين في العلم :

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

فالـزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله وفتنة الناس عنه وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به فيَضِلون ويُضلون .

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء ٨٢]

وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً .

١ - ويقولون في المثال الأول : إن لله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته لا تماثلان أيدي المخلوقين كما أن له ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين لأن الله تعالى يقول :

﴿ لَيسَ كَمِثله شيء وَهُوَ السَميعُ البَصير ﴾ . [الشورى]

وكعُلُو الله على عرشه على ما يليق بجلاله لا يشبه مخلوقاته :

قال الله تعالى : ﴿الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَىٰ﴾ . [طه ٥]

٢ ـ ويقولون في المثال الثاني : إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده . أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعالى :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه لا من إضافته إلى مُقَـدِّره ، أمـا إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّره وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة .

٣ ـ ويقولون في المثال الثالث : إن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أُنزل إليه بل هو أعلم الناس به وأقواهم يقيناً كما قال الله تعالى في نفس السـورة ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ الآية . « سورة يونس »

المعنى إن كنتم في شك منه فأنا على يقين منه ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله بل أكفر بهم وأعبد الله .

ولا يلزم من قوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ أن يكون الشك جائزاً على الرسول ﷺ أو واقعاً منه،ألا ترى قوله تعالى :

﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف]
هل يلزم منه أن يكون الولد جائزاً على الله تعالى أو حاصلاً ؟
كلا، فهذا لم يكن حاصلاً ولا جائزاً على الله تعالى قال الله تعالى :
﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً ، إنْ كُلُّ مَن في السَّمَوَاتِ وَالأرض إلاَّ ءَاتِي الرَّحمَنِ عَبداً ﴾ . [سورة مريم ٩٢-٩٣]

ولا يلزم من قوله تعالى ﴿ فلا تكونَنَّ من الممترين ﴾ أن يكون الامتراء واقعاً من الرسول ﷺ لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ولا يَصُدُّنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك وادعُ إلى ربك ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾[القصص] ومن المعلوم أنهم لم يصدوا النبى ﷺ عن آيات الله وأن النبى ﷺ لم يقع منه شرك ، والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم ، وبهذا يزول الاشتباه وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ .

[انظر كتاب أصول في علم التفسير للشيخ محمد صالح العثيمين]

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان :

أحدهما : حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها لقوله تعالى : ﴿ **ولا يُحيطون به علماً** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لا تُدركه الأبصار وهو يُدرِك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير** ﴾ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كيف استوى قال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه .

وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه .

يفهم من قول مالك أن كيفية الاستواء مجهولة لنا ، ومعنى الاستواء معلوم وهو العلو .

النوع الثاني : نسبي وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم . وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه لإمكان الوصول إليه إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس قال الله تعالى :

﴿ **هذا بيانٌ للناس وهُدىً وموعظة للمتقين** ﴾

[آل عمران ١٣٨]

وقال : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [النحل ٨٩]
وقال : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ [القيامة ١٨]
وقال : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ . [النساء ١٧٤]

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ حيث اشتبه على أهل التعطيل ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى وادَّعَوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة .
مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ . [البقرة]
(أي علا وارتفع كما جاء في البخاري) .
ومنها قوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ . [النساء ١٣]
حيث اشتبه على الوعيديه ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمداً مخلد في النار واطَّرَدوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى .
ومنها قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ حيث اشتبه على الجبرية ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله وادعوا أنه ليس له إرادة ولا

قدرة عليه . وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة وأن فعل العبد نوعان اختياري وغير اختياري .

والراسخون في العلم أصحاب العقول يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى فيبقى القرآن محكماً كله لا المتشابهة فيه .

[انظر كتاب اصول علم التفسير للشيخ محمد صالح العثيمين]



الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كان القرآن كله محكماً لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقاً وعملاً لظهور معناه وعدم المجال لتحريفه والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . ولو كان كله متشابهاً لفات كونه بياناً وهُدىً للناس ، ولما أمكن العمل به وبناء العقيدة السليمة عليه ، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات يُرجع إليهن عند التشابه وأُخر متشابهات امتحاناً للعباد ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى وما كان من عند الله فهو حق ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض لقوله تعالى :

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلَافاً كَثِيراً ﴾

[النساء ٨٢]

وأما من في قلبه زيغ فيتخذ من المتشابه سبيلاً إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام ولهذا تجد كثيراً من المنحرفين في العقائد والأعمال يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة .

[انظر كتاب أصول في التفسير للشيخ محمد صالح العثيمين بزيادة أمثله]

وعن عائشة قالت : «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية :

﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ آياتٌ محكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ

مُتَشَابِهات ، فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابتِغَاءَ الفِتنَةِ وَابتِغَـاءَ تَأويلِهِ ، وَمَـا يَعلَمُ تَأويلَهُ إلاَّ الله وَالـرَّاسِخُونَ في العِلمِ . يَقُولُون ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبنَا وَمَا يَذَّكَرُ إلاَّ أُولُوا الألبَابِ ﴾ .
[آل عمران ٧]

قال رسول الله ﷺ : «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فاولئك الذين سَمَّى الله فاحذرهم» . [متفق عليه]



كيف تنتفع بالقرآن الكريم ؟

قال الله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السمعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ . [سورة ق ٣٧]

إذا أردت الانتفـاع بالقـرآن ، فاجمـع قلبـك عنـد تلاوته ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به ، فإنه خطاب منه سبحانه لك على لسان رسوله ﷺ .

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مُقتضٍ ، ومحل قابل ، وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذي يمنع منه : تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه ، وأدله على المراد .

فقوله : ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول سورة ق إلى ههنا ، وهذا هو المؤثر .

وقـوله ﴿ لمن كان له قلب ﴾ فهذا هو المحل القابل ، والمراد به : القلب الحي الذي يعقل عن الله ، كما قال تعالى :

﴿ إنَ هُوَ إلا ذِكرٌ وَقُرءَانٌ مُبينٌ ، لِيُنذرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ .

[سورة يس ٦٩-٧٠]

(أي حي القلب)

وقوله ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أي وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا هو شرط التأثير بالكلام .

وقوله : ﴿ وهو شهيد ﴾ أي شاهد القلب حاضر ، غير غائب .

قال ابن قتيبة : استمع لكتاب الله ، وأنت شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه .

وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير : وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله .

فإذا حصل المؤثر ، وهو القرآن ، والمحل القابل ، وهو القلب الحي ، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتفى المانع ، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه إلى شيء آخر : حصل الأثر ، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر . [انظر الفوائد لابن القيم ص ٣-٥]

القرآن حجة لك أو عليك

هذا الحديث الصحيح رواه مسلم يقسم القراء إلى قسمين :

١ - القارىء الذي يقرأ القرآن ويكون حجة له يوم القيامة هو الذي يعمل بأوامره ، ويبتعد عن نواهيه فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويحكم به ، ويتحاكم إليه ، ويرضى بحكمه ، ويتدبر معانيه عملاً بقوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبروُا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ . [سورة ص ٢٩]

ويكثر من تلاوته وحِفظه وسماعه مِن غيره ، ولا سيما محطة الإذاعة للقرآن الكريم في السعوديه وغيرها ، ومن الأشرطة المسجلة لمشاهير القُراء كالمنشاوي والحصري وغيرهما ، فيستفيد مع عائلته مِن تلاوته وتفسيره : فإذا قرأ أو سمع قوله تعالى ﴿ **وأفوا بِالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾ بادر إلى الوفاء بِالعهد والوعد مع ربه وإخوانه .

٢ - القارىء الذي يقرأ القرآن ويكون حجة عليه هو الذي لا يعمل بأوامره ، ولا يبتعد عن نواهيه ، ولا يحل حلاله ولا يُحرم حرامه ، ولا يحكم به ، ولا يتحاكم إليه ، ولا يرضى بحُكمه ، ولا يهمه فهمه وتدبره وتطبيقه . . فإذا قرأ أو سمع قوله تعالى :

﴿ **ثُمَّ نَبتَهِل فَنجعل لَّعنَتَ الله عَلَى الكَاذِبِينَ** ﴾ . [آل عمران ٦١]

فترى هذا القـارىء يكـذب على النـاس في حديثـه ، ووعـده ، ومُعـاملاته ، وعقوده ، ومع الأسف الشديد ترى مِن الكفار من يلتزم الصدق في مُعاملته وعقوده ووعوده ، وحدثني ولدي أنه رأى في باريس حديقـة الحيوانات ، ورأى فيها حيواناً له يدان ، فإذا ألقى إليه إنسان شيئاً أمسَكه بيده ، وبما أن أحد المشاهدين لم يجد شَيئاً معه ، فأشار بيده إلى الحيوان دون أن يلقي إليه شيئاً ، فرآه الفرنسى حارس الحديقة ، وتقدم إلى هذا المسلم يوبخه على كذِبه على الحيوان !!

وهذه القصة تذكرنا بقصة جرت مع الإمام البخاري رحمه الله حينما رحل إلى بلد بعيد لِيأخذ الحديث عن رجل سمع به ، فلما وصل إليه بعد سَفر طويل ومشقة وجدَه يُنادي حيواناً بيده وذيله دون أن يكـون معه شيء ، فرجع البخاري ولم يأخذ عَنه الحديث ، لأن الذي يكذب على الحيوان قد يكذب على الرسول ﷺ .

ونرى كثيراً من الناس يكذب بحجة المزح ، أو يكذب على ولده ، ولا يدري أن هذا مسجل عليه في أعماله وفي الحديث :

«**من قال لصبي تعال هاك ، ثم لم يعطه فهي كذبة**» . [صحيح رواه أحمد]

فعليك يا أخي المسلم أن تعمل بما تقرأ وتسمع حتى يكون القرآن حجـة لك لا عليك ، ولا سيما حفـظة القـرآن والمشتغلين بعلومـه

وتفسيره ، فكثيراً من حفظة القرآن ومفسريه لا يتقيدون بتعاليمه وآدابه.

وأعرف من الرجال من يحفظ القرآن، ويشتغل بتفسيره مدة طويلة ولكنه لا يتورع عن الكذب ورمي إخوانه بأقبح الخصال ، والفحش من الكلام ، دون سبب موجب ، حتى لقد حكم على رجل محدث عالم جليل سلفي العقيدة بأنه يحترق في نار جهنم !! وهاجم أحد إخوانه في الحرم المكي وقال له: ياجاهل يا ضال أنت ترد عليَّ !! فعل ذلك لأن زميله نصحه وبين أخطاءه بلطف، ولكن أخذته العزة بالإثم، فخاصم وفجر في بيت الله الحرام، مع أن المشرك **قبل الإسلام كان يحترم** الحرم، فإذا وجد قاتل أبيه أعرض عنه احتراماً لبيت الله الحرام، فماذا استفاد هذا الرجل من حفظه للقرآن وتفسيره، ولا شك أنه سيكون حجة عليه كما ورد عن الصادق المصدوق:

« **والقرآن حجة لك أو عليك** ». [رواه مسلم]

وأعرف من حفظة القرآن من يتخذه مهنة ليقرأه على الأموات ويأخذ الأموال ويأكل الطعام على الموائد، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته فقال:

١ - اقرأوا القرآن وأعملوا به، **ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه، ولا**

تأكلوا به ، ولا تستكثروا به» . [صحيح رواه الإمام أحمد وغيره]

٢ ـ «اقرأوا القرآن وسلوا الله به ، قبل أن يأتي أقوام يقرؤون القرآن فيسألون به الناس» . [صحيح رواه الامام أحمد وغيره]



توجيـــه وبيـــان لفهـــم معانـــي بعـــض آي القـــرآن

التحذير من البدع في الدين

قال الله تعالى في حق عيسى عليه السلام :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً . وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . ﴾ [الحديد ٢٧]

﴿ رَهبانية ﴾ منصوب بابتدعوها أي وابتدعوا رهبانية ، فالوقف التام على قوله : ﴿ ورحمة ﴾ ثم يبتدىء ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي لم نشرعها لهم ، ولم نكتبها عليهم ، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم . [وهم الرهبان من النصارى]

وفي نصب قوله : ﴿إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ ثلاثة أوجه :

فالصواب : أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع ، أي : لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله ودل على هذا قوله : ﴿ ابتدعوها ﴾ ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية ، وأنه طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها . [انظر مدارج السالكين ج ٣٢/٣]

وعلق الشيخ حامد الفقي على هذا الكلام بقوله :

والظاهر من سياق الآية مع ما قبلها وما بعدها : أن الله سبحانه وتعالى يقصد إلى ذم الابتداع في الدين ، ويبين أنه مناف للفطرة ، وأن كل من ابتدع بدعة فإن مقتضى الفطرة أن يهن ويضعف عن القيام

بها ، لأنها مخالفة ومجافية للفطرة والعقل السليم . فأما الدين الذي شرعه الله الرب العليم الحكيم لإتمام النعمة على عباده ، فإنه لإصلاح الإنسانية وأخذها إلى الصراط المستقيم بفطرة الله التي فطر الناس عليها .

والرهبانية : وهي حرمان الطبيعة البشرية من حقوقها الفطرية في النساء والطعام واللباس والراحة والنوم ونحوها منافية للفطرة ، فمحال أن يقدر الإنسان على الوفاء بها ورعايتها حق الرعاية .

ولذلك غضب النبي ﷺ أشد الغضب على من حاول ذلك .

وقال الله تعالى :

﴿ قُل مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخرَج لِعِبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ .

[الاعراف ٣٢]

وذكر في كثير من الآيات أنها من وحي الشيطان إلى أوليائه والله أعلم

[انظر هذا التعليق في كتاب التفسير القيم لابن القيم ص٤٨٦]

أقول : لقد تشبه بعض الصوفية بالرهبان ، فلبسوا الصوف ، وحرموا أنفسهم من الطيبات ، مخالفين القرآن وهدي الرسول ﷺ .

التحذير من مخالطة المبتدعة

قال الله تعالى :

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطَانُ ، فلا تَقعُد بَعدَ الذِكرَىٰ مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام ٦٨]

والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ، و يضعونها على غير موضعها .

[تفسير ابن كثير ج ٢]

أقول : وكلمة الظالمين : تشمل المشركين ، والمحرفين ، والمبتدعين في الدين .

وقد حذر ابن القيم منهم فقال :

القسم الرابع : مَن مخالطته الهُلْكُ كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب في الناس ـ لاكثّرهم الله ـ وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة الله ورسول الله ﷺ ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

١ ـ إن جرَّدت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء الصالحين !

٢ ـ وإن جرَّدت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين !

٣ ـ وإن وصفت الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين !

٤ ـ وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا : أنت من المفتنين !

٥ ـ وإن اتبعت السنة وتركت ما يخالفها قالوا :
أنت من أهل البدع المضلين !

٦ ـ وإن انقطعت إلى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا : أنت من الملبسين !

٧ ـ وإن تركت ما أنت عليه ، واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين !

فالحزم كل الحزم : التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتابهم ، ولا باستعتابهم ، ولاتبال بذمهم ، ولا بغضبهم ، فإنه عين كما لك ، فإنه كما قيل :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني فاضل

[انظر تفسير القيم لابن القيم ص ٦٣٠]

أقول : لابد من دعوة مثل هؤلاء إلى الحق بالتي هي أحسن لإقامة الحجة عليهم امتثالاً لأمر الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ :

﴿ وَجَادِلهُم بالَّتِي هِي أَحسَنُ ﴾ . [النحل ١٢٥] .

﴿ وَاصبِر وَمَا صَبرُكَ إلَّا بِالله وَلاَ تَحزَن عَلَيهِم وَلاَ تَكُ في ضَيقٍ مِمَّا يَمكُرُونَ إنَّ الله مَعَ الَّذِين اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُحسِنُونَ ﴾ .
[النحل ١٢٧-١٢٨]



علاقة الشرك بالافساد في الأرض

قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تُفسِدُوا فِي الأَرضِ بَعدَ إِصلَاحِهَا﴾ . [الأعراف ٥٦]

قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك به ومخالفة أمره

قال تعالى :

﴿ ظهر الفسادُ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ [الشورى ٤١]

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله ، واقامة معبود غيره ، ومُطاعٍ مُتَّبَع غير رسول الله ﷺ : هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة ، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه ، وبالأمر بتوحيده ، ونهى عن إفسادها بالشرك به ، وبمخالفة رسوله .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم ، وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله .

[انظر تفسير القيم لابن القيم ص٢٥٥]

محبة غير الله كحب الله شرك

قال الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبّاً لله ﴾ . [البقرة ١٦٥]

[الأنداد : جمع ند : وهو المثل والنظير]

قال ابن القيم : أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى ، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في المحبة ، لا في الخَلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد أتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم .

وقوله : ﴿ يُحبونهم كحُب الله ﴾ أي يُحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً .

ثم قال : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾

أي والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ، وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله .

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا التفسير حين قال :

إنما ذُموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله ، كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى : حكاية عنهم

وهم في النار : أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم ، وهي محضرة معهم في العذاب :

﴿تَالله إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، إذ نُسَوِّيكُم بِرَب العَالِمِينَ﴾ . [الشعراء ٩٧-٩٨]

ومعلوم أنهم لم يُسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سوَّوهم به في المحبة والتعظيم [انظر مدارج السالكين لابن القيم ج٣/١٣-١٤]

أقول : إن بعض المسلمين من الصوفية يحبون مشايخهم ويعظمونهم كما يحبون الله ، متشبهين بالمشركين الذين ذمهم الله في الآية الأولى ، والبعض من المسلمين ـ مع الأسف الشديد ـ يدعون أولياءهم كما يدعون الله ، فقد ساووا بينهم وبين الله في الدعاء وهو من العبادة التي لا تجوز إلا لله ، فتنطبق عليهم الآية الأخيرة ، وفي الحديث :

«**الدعاء هو العبادة**» . [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

ومن الصوفية من يسوي بين الله ومخلوقاته كابن عربي المدفون بدمشق حيث يقول :

الرب عبد ، والعبد رَبٌّ

يا ليت شعري من المكلف

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

الله فوق العرش على السماء

قال الله تعالى :

﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الأَرضِ يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهرَكُم وَيَعلَمُ مَا تَكسِبُونَ ﴾ . [الأنعام ٣]

كثيراً ما تسأل مسلماً : أين الله ؟ فيجيبك : في كل مكان ويستشهد بهذه الآية ، أو بغيرها ، ولو عرف تفسير الآيات لما استشهد بها على جوابه الخطأ .

قال ابن كثير : اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية (فرقة ضالة) الأول القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه في كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك .

١ ـ فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض أي يعبده ويوحده ، ويُقر له بالإلٰهية مَن في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والانس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِي الأَرضِ إِلٰهٌ ﴾ . [الزخرف ٨٤]

أي هو إلٰه مَن في السماء وإلٰه مَن في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خبراً وحالاً

٢ ـ والقول الثاني أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في

الأرض من سر وجهر ، فيكون قوله : ﴿ يعلم ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ تقـديره : وهـو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، ويعلم ما تكسبون .

٣ ـ الثـالث : أن قولـه : ﴿وهو الله في السموات ﴾ وقف تام ، ثم أستأنف الخبر فقال : ﴿ وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ﴾ .

وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

[انظر تفسير ابن كثير ج ٢ / ١٢٣]

٤ ـ وأما قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ فقد فسرها ابن كثير بما يلي : (أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السـواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم) . [ج ٤ / ٣٠٤]

٥ ـ إن القـائلين بأن الله في كل مكـان أي معنـا يسمعنا ويرانا فهذا صحيح ، وإن أرادوا ذاته في كل مكان فهذا خطأ كبير ، لأن هناك أماكن نجسه وقذرة كالحمامات والمزابل ، فلا يقول عاقل مسلم بأن الله فيها ، تعالى الله عن ذلك .

وبعض المسلمين يقول : إن الله في قلب عبده المؤمن ، ويستندون إلى حديث لا أصل له ·

«ما وسعني سمائي ولا أرضي ، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن» .

فمن قال إن الله يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده .

والصحيح أن الله تعالى على السماء وفوق العرش ، والدليل ما يلي :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ (أي علا وارتفع) حسب تفسير مجاهد وأبي العالية في البخاري .

ب ـ قول الرسول ﷺ للجارية : **«أين الله ؟» فأجابت : (في السماء) قال لها : «من أنا ؟» قالت : (محمد رسول الله) ، فقال لصاحبها : «أعتقها فإنها مؤمنة»** . [رواه مسلم] .

يفهم من الحديث : أن من لم يعتقد أن الله في السماء فليس بمؤمن (ومعنى في السماء : أي على السماء) .

والاعتقاد بأن الله في السماء هو قول الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ومن سار على نهجهم .

الخوف والرجاء

قال الله تعالى :

﴿ وَادعُوهُ خَوفاً وَطَمَعاً ﴾ . [الاعراف ٥٦]

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يدعوا خالقهم ومعبودهم خوفاً من ناره وعذابه ، وطمعاً في جنته ونعيمه ، كما قال في سورة الحجر :

﴿ نَبِّئ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ . [الحجر ٤٩-٥٠]

لأن الخوف من الله يحمل العبد عن الابتعاد عن معاصي الله ونواهيه ، والطمع في جنته ورحمته يحفزه على العمل الصالح ، وكل ما يُرضي ربه .

ما تهدي إليه هذه الآية :

١ ـ أن يدعو العبد ربه الذي خلقه ، وهو الذي يسمع دعاءه ، ويجيبه .

٢ ـ عدم دعاء غير الله ، ولو كان نبياً أو ولياً أو ملكاً ، لأن الدعاء عبادة كالصلاة لا يجوز إلا لله .

٣ ـ أن يدعو العبد ربه خائفاً من ناره ، راغباً في جنته .

٤ ـ في الآية رد على الصوفيين القائلين : بأنهم لا يعبدون الله خوفاً منه ، أو رغبة فيما عنده ؛ لأن الخوف والرغبة من أنواع العبادة ،

وقد امتدح الله الأنبياء وهم صفوة البشر فقال :

﴿ إِنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيرَاتِ وَيَدعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لنا خَاشِعِينَ ﴾ . [الأنبياء ٩٠]

٥ ـ في الآية ردٌّ على كتاب (الأربعين النووية) عندما شرح النووي الحديث : «إنما الأعمال بالنيات» حيث قال :

وإذا وجد العمل وقارنته النية فله ثلاثة أحوال :

الأول : أن يفعل ذلك خوفاً من الله تعالى ، وهذه عبادة العبيد .

الثاني : أن يفعل ذلك لطلب الجنة والثواب ، وهذه عبادة التجار .

الثالث : أن يفعل ذلك حياء من الله وتأدية لحق العبودية وتأدية للشكر . . وهذه عبادة الأحرار .

وقد علق الشيخ محمد رشيد رضا على هذا الكلام في (مجموعة الحديث النجدية) فقال :

هذا التقسيم أشبه بكلام الصوفية منه بكلام فقهاء الحديث .

والتحقيق أن الكمال الجمع بين الخوف الذي سماه عبادة العبيد ، وكلنا عبيد الله ، والرجاء في ثواب الله وفضله الذي سماه عبادة التجار .

أقول : والشيخ متولي الشعراوي يتبنى عقيدة الصوفية في كتبه ، حيث ذكر هذا التقسيم السابق ، بل زاد في شططه حينما فسر ـ بالرائي ـ قوله تعالى :

﴿ وَلا يُشرِك بِعِبادَة ربه أَحَدَاً ﴾ . [الكهف]

فقال : والجنة أحد .

(كأنه يعني : عبادة الله تعالى طلباً لجنته) .

قال الشعراوي في كتابه (المختار من تفسير القرآن العظيم) :

النوع الثالث : أنه يعبده لأنه يستحق أن يعبد واستدل بحديث قدسي :

«**لو لم أخلق جنة أو ناراً أما كنت أهلاً لأن أعبد**» . [ج ٢/ ٢٥]

وهذا الحديث لم يذكر درجته والظاهر عليه الكذب لأنه يخالف القرآن وهذا الكلام الذي ذكره في كتابه يؤيد ما قاله في الرائي عندما فسر الآية بقوله : (والجنة أحد) .

فإن قال قائل : أراد الشعراوي أن من عبد الجنة فقد أشرك بالله .

نقول له : لا يوجد في الدنيا من يقول : إنه يعبد الجنة ، ولكن هذا التفسير من الشعراوي تدليس وإخفاء لعقيدة الصوفية التي يتبناها في كتبه .

والصوفية تقول : إنما يعبدون الله لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره !

الله نور السموات والأرض

قال الله تعالى :

﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيتُونَةٍ لَّا شَرقِيَّةٍ وَلَا غَربِيَّةٍ يَكَادُ زَيتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَم تَمسَسهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ، يَهدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضرِبُ اللهُ الأَمثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

[النور ٣٥]

١ ـ ذكر ابن كثير عن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما .

٢ ـ وقد فسر ابن القيم قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ .

بكونه مُنوراً السموات والأرض وهادي أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض ، وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور هو من أوصافه قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى . [اعلام الموقعين لابن القيم ج١ / ١٨٥]

٣ ـ وفسر أُبَيّ بن كعب في قول الله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ .

قال فبدأ بنور نفسه فذكره ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : (مثل نوره) يقول : مثل نور المؤمن ، قال : فهو عبد جعل الإيمان والقرآن في صدره كالمشكاة ، قال : المشكاة : صدره فيها مصباح ، قال : المصباح : القرآن ، والإيمان الذي جعل في صدره (المصباح في زجاجة) : قال الزجاجة قلبه . (كأنها كوكب دري) قال قلبه لما استنار فيه الإيمان والقرآن كأنه كوكب دري ، يقول : مضيء (يوقد من شجرة مباركة) قال : فالشجرة المباركة : الاخلاص لله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا أشرقت ولا إذا غربت قال : فذاك هو المؤمن قد أجير من أن يضله شيء من الفتن ، وقد يبتلى بها فيثبته الله ، فها هو بين أربع خلال : إن أعطي شكر ، وإن ابتلي صبر ، وإن قال صدق ، وإن حكم عدل ، فهو في الناس كرجل يمشي في قبور الأموات .

(يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار)

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : يعني كضوء إشراق الزيت .

(نور على نور) فهو (أي المؤمن) يتقلب في خمسة من النور : فكلامه

نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة . [انظر مختصر الصواعق لابن القيم ص٣٥٢]

٤ ـ قال الحافظ ابن كثير : لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هُداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله تعالى :

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال
[انظر تفسير ابن كثير ج٣/٣٩٢] .

ما يستفاد من الآية

١ ـ أن الله جعل للمؤمن نوراً يهتدي به .
٢ ـ أن الله يهدي من يشاء من عباده إلى الإيمان .
٣ ـ أن هذه الهداية هي هداية التوفيق .
٤ ـ أن هداية التوفيق بيد الله لا يقدر عليها أحد .
٥ ـ استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان والفهم .
٦ ـ أن اسم النور من أسماء الله تعالى .

المحو والاثبات في الأجل

قال الله تعالى :

﴿ يَمحُو الله مَا يَشَآءُ وَيُثبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ . [الرعد ٣٩]

قال الطبري : وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهها بالصواب ، القول الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد ، وذلك أن الله تعالى ذكره توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة ، وتهددهم بها ، وقال لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذنِ الله لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ . [الرعد ٣٨]

يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب ، هم مؤخرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل ، ثم قال لهم : فإذا جاء ذلك الأجل يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه ، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مال ، فيقضي ذلك في خلقه ، فذلك محوه ، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله : [أي حظه من الدنيا من البقاء والرزق] فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه .

[انظر تفسير الطبري ج ١٦ / ٤٩٠ / تحقيق محمود شاكر]

وقال الطبري في تفسير (وعنده أم الكتاب) :

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال :

(وعنده أصل الكتاب وجملته) .

وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، ثم عقب ذلك بقوله : (وعنده أم الكتاب) ، فكان بيناً أن معناه : وعنده أصل المثبت منه ، والممحو ، وجملته في كتاب لديه .

[تفسير الطبري ج ١٦/ ٤٩٨ تحقيق شاكر]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير الآية :

إن العلماء قالوا : إن المحو والإثبات في صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ، ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات .

وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات ؟ على قولين ، والله سبحانه وتعالى أعلم . [انظر الفتاوي مجلد ١٤/ ٤٩٢]

أقول هذا التفسير من العلماء يرد على المبتدعين الذين يقرؤون هذه الآية في ليلة النصف من شعبان ، زاعمين أن الله يمحو في هذه الليلة ما يشاء ويثبت ، وقد وردت أحاديث في فضل ليلة النصف من شعبان ، ولكن لم يرد هذا الاحتفال البدعي .

الزيادة والنقصان في العمر

قال الله تعالى :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِن عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر ١١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : فقد قيل : إن المراد الجنس : أي ما يُعمر من عمر إنسان ، ولا ينقص من عمر إنسان ، ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان :

١ ـ أحدهما أن هذا يطول عمره ، وهذا يقصر من عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن المعمر يطول عمره ، وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر .

٢ ـ وقد يراد بالنقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

«من سره أن يُبسَط له في رِزقه ، ويُنسأ له في أثَره فليصِل رحمه»

وقد قال بعض الناس : إن المراد به البركة في العمر ، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير ، قالوا : لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان .

فيقال لهؤلاء : تلك البركة والزيادة في العمل ، والنفع أيضاً مقدرة مكتوبة ، وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة ، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب ، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب، ونظير هذا في الترمذي وغيره عن النبي: «إن آدم لما طلب من الله أن يُريه صورة الأنبياء من ذريته ، فأراه إياهم ، فرأى فيهم رجلاً له بصيص ، فقال : من هذا يارب ؟ فقال ابنك داود ، قال فكم عمره ؟ قال : أربعون سنة . قال : وكم عمري ؟ قال : الف سنة . قال : فقد وهبت له من عمري ستين سنة ، فكتب عليه كتاب ، وشهدت عليه الملائكة ، فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة . قالوا وهبتها لابنك داود ، فأنكر ذلك ، فأخرجوا الكتاب . قال النبي ﷺ : «فنسي آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته» .

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح مع اختلاف الألفاظ]

[انظر الفتاوى ج ١٤ / ٤٩٠]

طريق الحق واحد وطرق الضلال كثيرة

١ ـ قال الله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ . [الأنعام ١٥٣]

٢ ـ وقال ابن مسعود : «**خط لنا رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى :**

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ الآية» .

فوحّد لفظ الصراط وسبيله ، وجمع السبل المخالفة له ، لأن الطريق الموصل إلى الله واحد ، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه ، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق . ولو أتى الناس من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة ، والأبواب عليهم مغلقة ، إلا من هذا الطريق الواحد ، فإنه متصل بالله ، موصل إلى الله قال الله تعالى :

﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُستَقِيمٌ ﴾ . [الحجر ٤١]

أي صراط موصِل إليَّ ، وقال مجاهد : (الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرج على شيء) وهو من أصح ما قيل في الآية . وقيل : (عليَّ) فيه للوجوب ، أي عليَّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه .

والقولان نظير القولين في آية النحل وهي :

﴿ وَعَلَى الله قَصدُ السَّبِيلِ ﴾ . [النحل ٩]

والصحيح فيها كالصحيح في آية الحِجر : أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله ، ويوصل إليه .

[انظر التفسير القيم لابن القيم ١٤-١٥]

٣ ـ أقول : من هذه الآية الكريمة ، ومن هذا الحديث الشريف يتبين للمسلم أن طريق الحق واحد ، وهو صراط الله المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ، والصراط : هو الإسلام المتمثل في الكتاب والسُّنة الصحيحة ، من تمسك بهما فقد هُدي إلى صراط الله المستقيم .

وتفيد الآية والحديث أن طرق الضلال كثيرة : وهي التي ابتعدت عن الكتاب والسنة ، وابتدعت لنفسها بدعاً ينكرها الإسلام فمشت في الظلمات ، وتركوا صراط الله الذي فيه النور والهداية ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ الله وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَولِيَآؤُهُم الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . [البقرة ١٥٧]

ففي هذه الآية وحَّد طريق النور ، وجمع طرق الظلمات ، كما جاء في الآية الأولى والحديث المتقدم ، وهذا يدل على أن طريق الحق واحد ، وطرق الضلال كثيرة .

المفهوم الصحيح لآية الهداية

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهدِي مَن أَحبَبتَ ، وَلَكِن الله يَهدِي مَن يَشَآءُ وَهُو أَعلَمُ بِالْمُهتَدِينَ ﴾ . [القصص ٥٦]

إذا أردت أن تنصح إنساناً وتدعوه إلى الهُدى ، فسرعان ما يقول لك بعضهم : دعه فإنك لا تهدي من أحببت !

ولو عرف هذا المعترض معنى هذه الآية ، ومعنى الهداية في الآية ، وسبب نزولها ، لم يقلها .

١ ـ ذكر العلامة القاسمي في تفسير هذه الآية ما نصه :

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أي لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أي أن يهديه فيدخله في الإسلام بعنايته .

﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي : القابلين للهداية لاطلاعه على استعدادهم ، وكونهم غير مطبوع على قلوبهم [محاسن التأويل ١٣ / ١١٥]

٢ ـ أما سبب نزولها فقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما نصه :

وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ

إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطفه من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة البالغة . [ج٣/٣٩٤]

٣ ـ وذكر سبب النزول الإمام مسلم في كتاب الإيمان :

باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، ما لم يشرع في النزع ، وهو الغرغرة ، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين ، والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ، ولا ينقذه ذلك شيء من الوسائل .

ثم ذكر السبب بطوله وخلاصته : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فقال له : «**يا عم ! قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله**» ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك**» .

فأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة ١١٣]

وأنزل الله تعالى في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ . [القصص]

قوله : «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» المراد قربت وفاته وحضرت دلائلها ، وذلك قبل المعاينة والنزع ، ولو كان في حال المعاينة

والنزع لما نفعه الإيمان . [انظر صحيح مسلم ج ١/ ٥٤]

أقـول : في هذه الآية ، وهـذا الحديث يثبت أن أبا طالب مات كافراً ،وفيه رد صريح على القائلين بنجاة أبي طالب .

ولا سيما ما رواه العباس بن عبدالمطلب أنه قال : يا رسول الله هل نفعتَ أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : **«نعم . هو في ضحضاح من نار . ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»** . [رواه مسلم]

وفي رواية : **«فيجعل في ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه ، يَغلي منها دماغه»** . [رواه مسلم]

٤ ـ ومعنى الهداية الواردة في الآية : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ هي هداية التوفيق الخاصة بالله ، أما الهداية بمعنى دعوة الناس إلى الإسلام فهي عامة في حق الله والرسول ﷺ ، وكل داع ، وقد قام الـرسول ﷺ بدعاء أبي طالب لهدايته وإسلامه ، فأبى الاسلام ومـات كافـراً ، فنـزلت الآية . ونحن نقـوم بدعـوة النـاس إلى هدايتهم ، . فإذا أعرضوا ندعوالهم بهداية التوفيق ، ولا يجوز أن نترك دعوتهم ، ونحتج بهذه الآية إلا في حادثة شبيهة بحادثة أبي طالب ، كأن ندعوَ كافراً إلى الإسلام فيأبى ويموت كافراً .

أنواع الهداية في القرآن الكريم

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أنواع ذكرها الراغب الأصفهاني :

١ ـ الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل ، والفطنة ، والمعارف الضرورية التي أعم منها ، كل شيء بقدر فيه حسب احتماله ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعطَىٰ كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ . [طه ٥٠]

٢ ـ الهداية التي جعل الناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء ، وإنزال القرآن ، ونحو ذلك ، وهو المقصود بقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلنَاهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا ﴾ . [الأنبياء ٧٣]

٣ ـ هداية التوفيق الذي يختص به من اهتدى ، وهو المعنى بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدًى وَءَاتَاهُم تَقوَاهُم ﴾ . [محمد ١٧]

﴿ وَمَن يُؤمِن بِاللهِ يَهدِ قَلبَهُ ﴾ [التغابن]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهدِيهِم رَبُّهُم بِإِيمَانِهِم ﴾ [يونس ٩]

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا ﴾ . [العنكبوت ٦٩]

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهتَدَوا هُدىً ﴾ . [مريم ٧٦]

﴿ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِ بِإِذنِهِ واللهُ يَهدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ ﴾ . [البقرة ٢١٣]

٤ ـ الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله :

﴿ سَيَهدِيهم وَيُصلح بَالَهُم ﴾ . [محمد ٥]

﴿ وَنَزَعنا مَا فِي صُدُورِهِم مِن غِلٍ تَجري مِن تَحتِهِم الأنهَارُ وَقَالُوا الحَمدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِيَ لَولاَ أَن هَدَانَا الله ﴾ .

وهذه الهداية الأربع مترتبة :

أ ـ فإن لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية ، بل لا يصح تكليفه .

ب ـ ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة .

ج ـ ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها .

د ـ ومن حصل له الثالث ، فقد حصل له اللذان قبله .

هـ ـ ثم ينعكس ، فقد تحصل الأولى ، ولا يحصل له الثاني ، ولا يحصل له الثالث .

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحداً بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات .

١ ـ وإلى الأول (الذي هو الدعاء وتعريف الطرق) أشار بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ ﴾ . [الشورى ٥٢]

وقوله : ﴿ وَلِكُلِ قَومٍ هَادٍ ﴾ أي داع . [الرعد ٧]

٢ ـ وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهدِي مَن أَحبَبتَ ﴾ . [القصص ٥٦]

٣ ـ وكل هداية ذكر الله عز وجل أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة ، وهي هداية التوفيق الذي يختص به المهتدون .

٤ ـ والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله عز وجل :

﴿ كَيفَ يَهدِي الله قَوماً كَفَرُوا بَعدَ إِيمَانِهِم وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ ، وَجَآءَهُمُ البَيِّنَاتُ ، وَالله لاَ يَهدِي القَومَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
[آل عمران ٨٦]

وكقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ استَحَبُّوا الحَيَوٰةَ الدُّنيَا عَلَى الآخِرَةِ ، وَأَنَّ الله لاَ يَهدِي القَومَ الكَافِرِينَ ﴾ . [النحل ١٠٧]

٥ ـ وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر وذلك أنهم غير قادرين عليها ـ فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق ، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة كقوله عز ذكره :

﴿ لَيسَ عَلَيكَ هُدَاهُم وَلَكِنَّ الله يَهدِي مَن يَشَآءُ ﴾ . [البقرة ٢٧٢]

وقوله : ﴿ وَلَو شَآءَ الله لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَى ﴾ . [الأنعام ٣٥]

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ العُمىِ عن ضَلاَلَتِهِم ﴾ . [الروم ٥٣]

﴿ إِنْ تَحرِص عَلَىٰ هُدَاهُم فَإِنَّ الله لاَ يَهدِي مَن يُضِلُّ ﴾ . [النحل ٣٧]

﴿ وَمَن يُضلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ . [غافر ٣٣]

﴿ وَمَن يَهدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍ ﴾ . [الزمر ٣٧]

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ . [القصص ٥٦]

وإلى هذا المعنى أشار بقوله :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ . [يونس ٩٩]

وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ . [الكهف ١٧]

أي طالب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه الله ، ويهديه إلى طريق الجنة ، لا من أضله فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله :

﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ . [البقرة ٢٦٤]

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ . [سورة الزمر ٣]

الكاذب الكفار : هو الذي لا يقبل هدايته ، فإن ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعاً لذلك ، ومن لم يقبل هدايته لم يهده ، كقولك : من لم يقبل هديتي لم أهد له ، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه ، ومن رغب عني لم أرغب فيه .

[انظر كتاب المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ٣٥٩]

المحافظة على أرواح المؤمنين

قال الله تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُم عَنِ المَسجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعكُوفاً أَن يَبلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَولَا رِجَالٌ مُؤمِنُونَ ، وَنِسَاءٌ مُّؤمِنَاتٌ لَّم تَعلَمُوهُم أَن تَطَؤُوهُم ، فَتُصِيبَكُم مِنهُم مَعَرَّةٌ بِغَيرِ عِلمٍ ، لِيُدخِلَ اللهُ فِي رَحمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

[الفتح ٢٥]

يستفاد من الآية ما يلي :

١ ـ أن المشركين من أهل مكة منعوا المسلمين من دخول مكة لأداء العمرة ومعهم الهدي محبوساً لم يبلغ مكانه المخصص له ليذبح .

٢ ـ لا يجوز قتال الكفار المعتدين ، والمؤمنون مختلطون بينهم ، خشية أن تقع الخسارة بالمؤمنين والمؤمنات بغير قصد ، فيقع الإثم والعار على المؤمنين المقاتلين وهذا يبين مدى حرص الإسلام على حياة المؤمنين والمؤمنات ، ولو كانوا قلة ، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره : أن عدد المؤمنين والمؤمنات الموجودين في مكة تسعة نفر سبعة رجال ، وامرأتان ، وهذا ما يفيده قوله تعالى :

﴿ ولولا رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم ، فتُصيبكم منهم مَعَرَّة بغير عِلم ﴾ .

٣ ـ تأخير عقوبة المشركين ، حتى يُدخل الله منهم من شاء في الإسلام ، وهذا ماحصل فعلاً ، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره عن حبيب بن سباع قال :

(قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مؤمناً) ، وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ ليُدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ .

٤ ـ جواز قتال الكافرين إذا كان بينهم مؤمنون متميزون عنهم ، لا يختلطون فيما بينهم وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ .

٥ ـ أقول : ليت المسلمين عامة ، والمجاهدين منهم خاصة أخذوا بتطبيق هذه الآية ، وراعوا وجود إخوان لهم من المسلمين والمسلمات مختلطين بين الذين يريدون قتالهم ، لو أنهم أخروا قتالهم ـ كما أخر المسلمون الأولون قتالهم عندما منعهم المشركون دخول مكة ـ لحقنوا دماء إخوانهم المؤمنين والمؤمنات ، ولم يقدموا رقابهم للمجرمين ، وأعراضهم للفتك بها .

الذكر الكثير وأنواعه

قال الله تعالى :

﴿ يَا أيُّها الَّذينَ ءَامَنُوا اذكُرُوا الله ذِكراً كَثِيراً ﴾ . [الأحزاب ٤١]

إن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة ، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد ، فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به : وهو أنواع :

١ ـ ذكره بأسمائه وصفاته ، والثناء عليه بها .

٢ ـ تسبيحه وتحميده ، وتكبيره وتهليله ، وتمجيده ، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين .

٣ ـ ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه . وهو ذكر أهل العلم . بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم .

٤ ـ ذكره بكلامه ، وهو القرآن ، ويعتبر من أفضل الذكر :

قال تعالى :

﴿ وَمَن أعرَضَ عَن ذِكرِي فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ونَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أعمَىٰ ﴾ . [طه ١٢٤]

فذكره هنا هو كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ .

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ الله ، أَلَا بِذِكرِ الله تَطمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ .

[الرعد ٢٨]

٥ ـ ذكره بدعائه ، واستغفاره ، والتضرع إليه .

٦ ـ وذكر رسول الله ﷺ تبع لذكره فهذه خمسة أنواع من الذكر .

[انظر جلاء الافهام لابن القيم ص ٣٠٧]

أقول : وذكر الله يكون بما شرعه الله ، وعلمه رسوله لأمته ، لا بالابتداع كما يفعل الصوفية من الأذكار المختلفة المخترعة المبتدعة مثل قولهم : هو ، هو ويعتبرونه من أسماء الله ، وهو غير صحيح ، وكذلك الصلاة على النبي ﷺ لا تكون إلا بما ورد في السنة كالصلوات الإبراهيمية وغيرها مما يوافق السنة .



القرآن يأمر بما جاء به الرسول ﷺ

قال الله تعالى :

﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُم عنه فَانتَهُوا ﴾ . [الحشر ٧]

قال ابن كثير : أي مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه يأمر بخير ، وإنما ينهى عن شر .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : «لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل» . قال فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب ، فجاءت إليه ، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت . قال ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ بين لوحيه فما وجدته ، فقال : «إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالت بلى ، قال فإن رسول الله ﷺ نهى عنه ، قالت إني لأظن أهلك يفعلونه . قال اذهبي فانظري ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت ما رأيت شيئاً . قال لو كان كذا لم تجامعنا» . [متفق عليه][ج٤/٣٣٦]

وفي رواية ما جامَعَتنا . [كما في البخاري تفسير سورة الحشر]

(المراد : الاجتماع أي لم تجتمع بنا) [فتح الباري ج ٨/٦٣١]

وقال ﷺ : «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم

عنه فاجتنبوه» . [متفق عليه]

أقول : هذه الآية تنطبق على كل ما أمر به الرسول ﷺ من صدق وأمانة ، ووفاء وعد وإعفاء لحية ، وغير ذلك من الأوامر ، فقد كنت منذ سنين طويلة أدرس في الحرم المكي ، وأنصح الحجاج أن يعفوا لحاهم ، ويقصـوا شواربهم كما أمر به الرسول ﷺ ، فقام رجل من الحاضرين وطلب مني الدليل من القرآن الكريم على وجوبها ، فقلت له : اقرأ قوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ وقد أمرنا الرسول ﷺ بإعفاء اللحية ، فقال لي صدقت ، وبعد أيام أعفى لحيته .

ما هي فتنة داود ؟

قال الله تعالى :

﴿ وَهَل أَتَاكَ نَبَؤُا الخَصم إِذ تَسَوَّرُوا المِحرَابَ . إِذ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنهُم . قَالُوا لَا تَخَف خَصمَانِ بَغَىٰ بَعضُنَا عَلَىٰ بَعضٍ فَاحكُم بَينَنَا بِالحَقِّ وَلَا تُشطِط ، وَاهدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسعٌ وَتِسعُونَ نَعجَةً وَلِيَ نَعجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكفِلنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ . قَالَ لَقَد ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبغِي بَعضُهُم عَلَىٰ بَعضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُم وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستَغفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فَغَفَرنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلفَىٰ وَحُسنَ مَآبٍ . يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ ، فَاحكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ ﴾

[سورة ص ٢١]

اختلف المفسرون في هذه الآيات إلى أقوال :

١ ـ قال الطبري : هذا مثل ضربه الخصم المتَسَوِّرون على داود محرابه ، وذلك أن داود كانت له فيما قيل تسع وتسعون امرأة . وكان للرجل الذي أغزاه ـ حتى قتل ـ امرأة واحدة . فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى علم أنه ابتُلي ، فسأل غفران ذنبه ، وخر ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه ، وتاب من خطيئته . [انظر تفسير الطبري ٢٣ / ١٤٣]

ثم أسند الطبري قصته مطولة ، ويشبه سياق بعضها ما ذكر في التوراة المتداولة الآن . [انظر تفسير القاسمي ج ١٤ / ١٥٦]

قال السيوطي في الإكليل : القصة التي يحكونها في شأن المرأة ، وأنها أعجبته (داود) وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعاً ، وفي إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، وعن أبي يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف ، وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفاً . انتهى .

أقول : والعجيب أن يقول هذا القول الطبري وغيره من المفسرين مع ضعف أدلته النقلية والعقلية .

٢ ـ وقال ابن حزم في (الفصل) : ماحكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولَّدها اليهود . وإنما كان ذلك

الخصم قوماً من بني آدم بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهما على الآخر (على نص الآية) .
ومن قال إنهم كانوا ملائكة مُعَرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه . . وتالله إن كل امرىء منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ، ثم يعرض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها . .
٣ ـ وقال البقاعي في تفسيره : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام ، لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلاً الى الطعن فيه ، انتهى .
ثم قال : وقوله تعالى : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام . وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ فدفعه بقوله : ﴿ وإن له عندنا لَزُلفى وحُسن مآب ﴾ فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي تدريب في الحكم ، لا بامرأة ولا غيرها ، وأن ما ذكره من قصة المرأة باطل وإن اشتهر ، فكم من باطل مشهور ومذكور ، وهو عين الزور . انتهى .
[انظر تفسير القاسمي ج ١٥٨١١٤]

النبي سليمان يمسح الخيل حباً لها

قال الله تعالى :

﴿ وَوَهبنَا لِدَاوُدَ سُلَيمَان ، نِعمَ العَبدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِذ عُرِضَ عَلَيهِ بالعَشِيِ الصَّافنَاتُ الجِيَادُ ، فَقَال إِنِي أَحبَبتُ حُبَّ الخَيرِ عَن ذِكرِ رَبِي حَتَّى تَوَارَت بِالحِجابِ ، رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسحَاً بِالسُّوقِ وَالأَعنَاقِ ﴾ . [سورة ص ٣٠-٣٣]

ذكر كثير من المفسرين أن سليمان عليه السلام شغلته الخيل عن صلاة العصر ، حتى غابت الشمس فأمر بقطع سوقها وذبحها تقرباً إلى الله ، وقد اختلفت عباراتهم ، وكلها تدور على هذا المعنى ، وهذا التفسير عليه ملاحظات :

١ ـ قوله ﴿ عن ذكر ربي ﴾ أي : صلاة العصر ، لا دليل عليه ، لأن كلمة (عن) تأتي بمعنى (من) كما نقل الشوكاني في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **عن ذكر ربي** ﴾ يقول : من ذكر ربي . [ج ٤/٤٣٢]

فالخيل هي من ذكر الله ، لأن فيها الإعانة على الجهاد ، ولذلك أمر الله تعالى برباطها فقال عز من قائل :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعتُم من قُوَّةٍ ، وَمِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبونَ بِهِ عَدُو الله وَعَدُوكُم وَءَاخَرِين من دُونِهِم . . ﴾ . [الأنفال ٦٠]

وقد حل مكانها الآن الدبابات ، والطائرات والمصفحات ، والصواريخ ، وغيرها من المخترعات .

فإعداد الخيل للجهاد من العبادات المطلوبة ، بل هو من أفضلها ، لذلك جاء مدحها في كثير من الأحاديث الصحيحة .

٢ ـ قول المفسرين ﴿ **حتى توارت** ﴾ أي الشمس : لا دليل عليه أيضاً لأن الشمس ليس لها ذكر من قريب أو بعيد ، والأقرب هو ذكر الخيل ، فيكون المعنى : حتى توارت الخيل واختفت عن نظر سليمان عليه السلام .

٣ ـ والأهم من ذلك قول المفسرين ﴿ **فطفق مسحاً بالسوق والأعناق** ﴾ قطع سوقها وأعناقها حيث فسروا المسح بالقطع : وهذا لا دليل عليه ، ولا سيما أن فيه تعذيباً للحيوان وإتلافاً للمال .

والأولى أن نحمل الآية على ظاهرها ، فقد نقل الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فطفق مسحاً بالسوق والأعناق** ﴾ يقول : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها .

وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية ، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويُهلك مالاً من ماله بغير سبب . [انظر تفسير الطبري ج٢٣ / ١٥٦]

(العرقبة : قطع أرجل الخيل) .

٤ ـ أقول : هذا التفسير لابن عباس هو الصحيح ، ويمكن القول بأن

سليمان عليه السلام كان يُجري استعراضاً عسكرياً للخيل لمحبته لها فلما مرت أمامه ، وغابت عن نظره أمر بإعادتها ورَدها ، فجعل يمسح التراب والعرق عن سوقِها وأعناقها مِن أثر الغبار الذي لحقها ، كما يفعل الآن من عنده الخيل .

٥ ـ وقال ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة . قد جمعت أفانين من القول ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذَنب لها ، والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى : ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها .

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حُب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس ، أو تلك الصافنات بحجابها ، ثم أمر بردها فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده براً بها وإكراماً لها ، وهذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكره من قتل الخيل وتعطيل الصلاة ، وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ .

٦ ـ وقال الفخر الرازي في الآية : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم ، كما أنه كذلك في دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو ، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها ، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما

أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله ﴿ عن ذكر ربي ﴾ ثم أنـه عليه السـلام أمـر بإعادتها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل ، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها .

والغرض من ذلك المسح أمور:

١ ـ تشريفاً لها وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

٢ ـ أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك وأنه يباشر أكثر الأمور بنفسه .

٣ ـ أنـه كان أعلم بأحـوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض .

التفسير الصحيح لفتنة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى :

﴿وَلَقَد فَتَنَّا سُلَيمَانَ وَأَلقَينا عَلَىٰ كُرسِيهِ جَسَداً ، ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

[سورة ص ٣٤]

هذه الآية الكريمة يفسرها قوله ﷺ : «قال سليمان عليه السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلِد كلُ امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملَك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسي ، فطاف بهن ، ولم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان» ، وفي رواية :

«فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل» .

قال النبي ﷺ : لو قال : «إن شاء الله لم يحنث ، وكان أرجى لحاجته» ، وفي رواية : «ولو كان استثنى لولدت كل واحدة منهن غلاماً فارساً يقاتل في سبيل الله» . [متفق عليه]

[معنى : بشق رجل : أي نصفه] :

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان :

(فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بَيَّنَ معنى قوله تعالى :

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ .

وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله (إن شاء الله) وأنه لم يلد من

تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي أُلقي على كرسيه بعد موته في قوله تعالى :

﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ الآية .

فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ولقد فتنّا سليمان﴾ الآية

من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان ، وطرد سليمان من ملكه ، حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له مَن كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه ، إلى آخر القصة ـ لا يخفى أنه باطل لا أصل له ، وأنه لا يليق بمقام النبوة ، فهو من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة ، والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا ، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجملة ، واختاره بعض المحققين والعلم عند الله تعالى . [ج ٤/٧٧]

حكم تعدد الزوجات في الاسلام

قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفتُم أَلَّا تُقسِطُوا في اليَتَامَىٰ ، فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِن النِسَآءِ مَثنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِن خِفتُم أَلَّا تَعدِلُوا فَوَاحِدَةً أَو مَا مَلَكَت أَيمَانُكُم ، ذَلِك أَدنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء ٣]

يفهم بعض الناس من هذه الآية أنها تبيح تعدد الزوجات للرجل في الحالات الضيقة ومشروط بمرض أو عقم ولو رجع هؤلاء إلى تفسير العلماء لهذه الآية لزال عنه هذا الفهم الخاطىء .

١ ـ قال ابن الجوزي في تفسيره : اختلفوا في تنزيلها وتأويلها .

أ ـ أن القوم كانوا يتزوجون عدداً كثيراً من النساء في الجاهلية ولا يتحرجون من ترك العدل بينهن وكانوا يتحرجون في شأن اليتامى ، فقيل لهم في هذه الآية : احذروا من ترك العدل بين النساء كما تحذرون من تركه في اليتامى .

وهذا المعنى مروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل .

ب ـ أن معناها وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في صدقات اليتامى (أي المهور) إذا نكحتموهن ، فانكحوا سواهن من الغرائب اللواتي أحل الله لكم ، وهذا المعنى مروي عن عائشة

رضي الله عنها روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى ﴾ فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنُهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهن ، ويبلغوا أعلى سنتهن في الصداق ، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . [انظر زاد المسير ٢ / ٦٠]

٢ ـ قال القرطبي : واتفق كل من يعاني علوم القرآن على أن قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تُقسطوا ﴾ الآية . ليس له مفهوم ، (يخالفه) إذ قد أجمع المسلمون على أنه من لم يخف القسط في اليتامى له أن ينكح أكثر من واحدة : اثنتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ، كمَن خاف .

فدل على أن الآية نزلت جواباً لمن خاف ذلك ، وأن حكمها أعم من ذلك .

٣ ـ أما معنى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ الآية .

فقال الشوكاني في تفسيرها :

والمعنى : فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات في القَسْم ونحوه ، فانكحوا واحدة ، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك . (أو ما ملكت أيمانكم) يجوز للرجل نكاح ما ملكت يمينه

بدون تحديد . (ذلك أدنى ألا تعولوا) والمعنى : وإن خفتم عدم العدل بين الزوجات فهذه التي أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور . (أي الظلم) .

[انظر فتح القدير ج ١/ ٤٢١] .

ومفهوم العدل في القرآن هو العدل في النفقة والمبيت ، بحيث ينفق على كل واحدة مثل ما ينفق على الأخرى ، وأن يعدل في المبيت بحيث يبيت عند كل واحدة ليلة أو أكثر حسب الاتفاق . أما الحب القلبي ، والجماع فلا يملكه الإنسان ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ وَلَن تَستَطِيعُوا أن تَعدِلُوا بَينَ النِسَاءِ وَلَو حَرَصتُم ، فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ المَيـلِ فَتَذَرُوهَا كَالمُعَلَّقَةِ ، وَإن تُصلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإنَ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ . [النساء ١٢٩]

قال الإمـام الشوكاني في تفسير هذه الآية : (أخبر سبحانه بنفي ا ستطاعة الرجال للعدل بين النساء ، على الوجه الذي لا ميل فيه البتة لما جُبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه ، وزيادة هذه في المحبـة ، ونقصـان هذه ، وذلـك بحكم الخِلقـة ، بحيث لا يملكـون قلوبهم ، ولا يستـطيعـون توقيف أنفسهم على التسوية ، ولهذا قالت عائشة : كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : «**اللهم هذا قَسْمي فيما أملك ، فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك**» (يعني القلب) وإسناده صحيح .

ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم الله عز وجل أن يميلوا كل الميل ، لأن ترك ذلك وتجنب الجَور كل الجَور في وُسعهم وداخــل تحت طاقتهم ، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل ، حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج ولا مطلقـة تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء ، (وإن تُصلحوا) أي ما أفسدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها عِشرة النساء والعدل بينهن (وتتقوا) كل الميل الذي نُهيتم عنه (فإن الله كان غفوراً رحيماً) لا يؤاخذكم بما فرط منكم .

[انظر فتح القدير ج ١/٥٢١]

٤ ـ وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية «**أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تســاووا بين النســاء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القَسْم الصوري ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع**» .

الخلاصة

١ ـ إن الإسلام الحكيم الذي أباح تعدد الزوجات ، فهو في مصلحة النساء قبل الرجال ، حتى يكفل للبنات والأرامل العيش العزيز في بيوت أزواجهن بدلاً من أن يكن عالة في بيوت من يعولهن .

٢ ـ ان الدعوة إلى عدم تعدد الزوجات يسبب قلة النسل الذي يسعى

إليه أعداء الإسلام لتقليل عددهم وإذلالهم ، كما أنه يسبب كثرة العوانس من البنات والأرامل في البيوت مما يُعرضهن للفتنة والفساد لأن النساء أكثر عدداً من الرجال حسب الإحصاء ولا سيما حينما يتعـرض الرجال للقتل في الحروب والمعارك ، وقد قامت مظاهرة نسائية في ألمانيا بعد الحرب العالمية يطالبن بتعدد الزوجات !

٣ - إن تعدد الزوجات يوافق هذا الزمن ، لأن الأمم يُنظر إليها بعدد نفوسها ، وكلما ازداد عددهم قويت شوكتهم ، وبما أن الحروب في أفغانستان وإيران ، وفلسطين ، ولبنان ، والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية سببت قلة الرجال ، وكثرة النساء الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن ، فإن الإســلام يريد من المسلمين ألا يتركـوا هؤلاء الأرامل للجوع والفتنة والفساد .

تقول الزعيمة العالمية (أني بيزانت) : (متى وزنا الأمور بقطساس العدل المستقيم ظهر لنا أن تعدد الزوجات الإسلامي الذي يحفظ ويغذي ويكسو النساء أرجح وزناً من البغاء الغربي الذي يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لمحضِ إشباع شهواته ، ثم يقذف بها إلى الشارع متى قضى منها أوطاره) .

أقول : هذه شهادة امرأة كافرة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

خطر اختلاط الرجال بالنساء

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَد هَمَّت بِهِ . وَهَمَّ بهَا لَوَلآ أن رأى بُرهَان رَبّهِ ، كَذَلِك لنَصرِفَ عَنهُ السُّوءِ وَالفَحشآءَ ، إنَّهُ مِن عِبَادِنَا الُمخلَصِينَ ﴾ .
[يوسف ٢٤]

اختلف المفسرون في هَمِّ يوسف بها على أقوال :

الأول : إنه كان من جنس همها ، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل .

الثاني : أنها همَّت به أن يفترشها ، وهمَّ بها ، أي : تمناها أن تكون له زوجة .

الثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً : ولقد همَّت به ، ولولا أن رأى برهـان ربه لهمَّ بها فلما رأى البرهان لم يقع منه الهم ، فقدم جواب (لولا) عليها ، كما يقال : قد كنت من الهالكين ، لولا أن فلاناً خلَّصك .

الرابع : أنه هَمَّ أن يضربها ويدفعها عن نفسه ، فكان البرهان الذي رآه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه إن ضربها كان ضربه إياها حجـة عليه ، لأنها تقول : راودني فمنعته فضربني .

(ذكره ابن الانباري) . [انظر زاد المسير لابن الجوزي ج ٤/٢٠٣]

أقـول : اختـار هذا القـول الأخير الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ، واختاره أبو بكر الجزائري حين قال :

(ولقد همَّت به . وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه) أي همَّت بضربه لامتناعه عن إجابتها لطلبها بعد مراودات طالت مدتها ، وهمَّ هو بضربها دفعاً لها عن نفسه ، إلا أنه أراه الله برهاناً في نفسه ، فلم يضربها(١) ، وآثر الفرار إلى خارج البيت ، ولحقته تجرى وراءه لترده .

[انظر أيسر التفاسير ج ٢ / ٣٩١]

١ ـ هذا القول هو الذي دل عليه السياق وهو الآية التي قبلها، قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوَاب ، وَقَالَت هَيتَ لَكَ ﴾ . [يوسف ٢٣]

فالمراودة : وهي طلب المرأة من يوسف أن يواقعها بعد تغليق الأبواب قد حصلت ، وقد قالت له : أقبل إليَّ فإني أُحب مضاجعتك ! فكان جواب يوسف :

﴿ مَعَاذَ الله ، إِنَّهُ رَبِّي أَحسَنَ مَثوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفلح الظَّالِمُونَ ﴾ .

[يوسف ٢٣]

فكان هذا الرد الحاسم من يوسف صفعاً لها ، ومخيباً لآمالها ، ومخالفاً لأمرها ، ولا سيما وأنها السيدة امرأة العزيز ، ويوسف فتى عندها وخادماً لها ، فلذلك همَّت به أن تضربه تأديباً له ، لعله يستجيب بهذا الضرب إلى طلبها ، بعد أن امتنع عن طلبها بالقول

(١) أقول : لذلك وجب الوقف على قوله ﴿ ولقد همت به ﴾ ثم يبتدىء بقوله : ﴿ وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ليفهم القارىء أن الهم لم يقع من يوسف .

اللين ، والعبارات المغرية .

٢ ـ أما اللحاق : وهي الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالفحشَاءَ ﴾ . [يوسف ٢٤]

فالله قد صرف عنه السوء وهو الضرب الذي لو فعله للحق به ما يُسيء إليه ، وهو إلصاق التهمة به ، وقد صرف الله عنه الفحشاء : وهو الزنى بامرأة العزيز ، وعلل ذلك قوله :

﴿ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا المُخلَصِينَ ﴾ . [يوسف ٢٤]

فيوسف عليه السلام من عباد الله الذين استخلصهم ، واصطفاهم لرسالته ، وعصمهم من السوء والفحشاء ، فلا يمكن أن يقع يوسف في السوء والفحشاء ، لأن الله صرف عنه ذلك ، فلذلك جاء التعبير بقوله : (**لنصرف عنه السوء والفحشاء**) ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، وهذا يرد على القائلين بأن يوسف وقع منه همٌّ بامرأة العزيز .

٣ ـ ودليل آخر على تفسير الهمّ بالضرب : هو همُّ يوسف بالهرب منها تخلصاً منها حينما حاولت ضربه ، وقد لحقته لتمسك به وتأخذه بقوة ، وأمسكت بقميصه من الخلف فشقته ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَاستَبَقَا البَابَ ، وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ . . . ﴾ . [يوسف ٢٥]

ما يستفاد من هذه القصة

١ ـ التحذير من اختلاط الخدم والسواقين وغيرهم من الرجال بالنساء ، وعدم الدخول عليهن ، والخلوة معهن ، لئلا يقع من النساء ما وقع لامرأة العزيز ، ولا سيما عند غياب صاحب البيت ، ومنع النساء من الاختلاط بالأجانب وخاصة العمال في البيوت والسواقين . . الخ .

٢ ـ السواقون والخدم والمدرسون لا يقاسون بيوسف الذي عصمه الله ، فقد يقعون بالفاحشة إلا من رحم ربك .

٣ ـ تحذير النساء مما وقعت فيه امرأة العزيز من الخيانة الزوجية ، وقد وصل خبرها إلى النساء ، ورأوها في ضلال مبين .

٤ ـ الاقتداء بيوسف عليه السلام ، والابتعاد عن الزنا ومقدماته ، ولا سيما للمسلم الذي يحرم عليه دينه ذلك .

عيسى عليه السلام حي في السماء

قال الله تعالى بشأن عيسى عليه السلام :

﴿ إذ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إني مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . [آل عمران ٥٥]

قد يتوهم بعض الناس من ظاهر هذه الآية الكريمة وفاة عيسى وموته ، ولو رجعوا إلى أقوال المفسرين المعتمدين لهذه الآية لزال عنهم الوهم ، وقد اختلف المفسرون فيها على أقوال :

١ ـ إن التوهم جاء من كلمة (مُتَوفيك) على أن التوفي بمعنى الإماتة ، وأنه قد حصل قبل الرفع ، والجواب على هذا ما يلي :

أن قوله تعالى : ﴿ متوفيك ﴾ لا يدل على تعيين الوقت ، ولا يدل على أن التوفي قد مضى ، والله تعالى متوفيه يوماً ما ، ولكن لا دليل على أن ذلك اليوم قد مضى .

وأما عطفه (ورافعك) على قوله : ﴿ متوفيك ﴾ فلا دليل فيه ، لأن الجمهور من علماء اللغة يرون أن الواو لا تفيد الترتيب ولا الجمع ، وإنما تفيد مطلق التشريك ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَ حَيَاتُنَا الدُنيا نَمُوت وَنَحيا ﴾ . [الجاثية]

فدلت الآية على أن الواو لا تفيد الترتيب ، لأن المعطوف وهو الحياة سابق في الوجود على المعطوف عليه ، وهو الموت .

وعليه فيكون معنى الآية : ﴿ إني رافعك إليَّ ومُتوفيك ﴾ وقد ثبت بالأدلة على أن عيسى حي في السماء ، وأنه سينزل ويقتل الدجال ويكسر الصليب ، وغير ذلك كما سيأتي ، ثم يتوفاه الله بعد ذلك .

[انظر أضواء البيان ، وزاد المسير وغيرهما]

٢ ـ التفسير الثاني : أنها وفاة نوم للرفع إلى السماء فيكون معنى الآية (إني مُنيمك ، ورافعك إلي) .

وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ ، وَيَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهَار ﴾ .

[الأنعام ٦٠]

﴿ الله يَتَوَفَّ الأَنفُسَ حِينَ مَوتِها ، وَالَّتِي لَم تَمُت فِي مَنَامِها ﴾ .

[الزمر ٤٢]

وكان ﷺ إذا قام من النوم يقول :

«**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» . [رواه البخاري]

فقد ثبت في الكتاب والسنة صحة إطلاق الوفاة على النوم ، ويكون رفع عيسى عليه السلام وهو نائم رفقاً به كما قال الحسن البصري .

٣ ـ التفسير الثالث : أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر : أي رافعك إلي ومتوفيك بعد ذلك في الأرض بعد أن تعود إليها قبل يوم القيامة ، لتكون علماً من أعلام الساعة .

وهذا قول الفراء والزجاج ، وتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعه إلى السماء لا يمنع من موته .

٤ ـ الوجه الرابع : أن (متوفيك) اسم فاعل من توفاه إذا قبضه وحازه إليه ، ومنه قولهم : (توفى فلان دينه) إذا قبضه . قال ابن قتيبه في غريب القرآن : (متوفيك) : قابضك من الأرض من غير موت .
قال الإمـام ابن جرير الطبري : ومعلوم أنه لو كان أماته الله عز وجل لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين . . فتأويل الآية : يا عيسى إني قابضك من الأرض ، ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا فجحدوا نبوتك .
[انظر تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر ٦/٤٥٨]

أقـول : كل التفـاسير التي مرت يصح تفسير الآية بها ، إلا أن الراجح هو التفسير الرابع : وهو أن المراد من قوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ أي متوفي شخصك حياً من الأرض من غير موت ولا نوم ، وأن قولـه : ﴿ رافعـك إلي ﴾ هو تعيين لنـوع التـوفي ، وهـو إختيار الطبري وابن قتيبه كما تقدم ، وهو الرواية الصحيحة عن ابن عباس كما قال الألوسي في روح المعاني .

وعلى هذا فلا يمكن تفسير قوله تعالى : ﴿ متوفيك ﴾ مميتك ، ومن قوله تعالى ﴿ رافعك ﴾ رافع روحك كما زعم البعض وذلك لما تقدم من أوجه التفسير في معنى التوفي . والله أعلم .

الآيات الدالة على عدم قتل عيسى

١ ـ قال الله تعالى :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم ، وَإِنَّ الَّذِينَ اختَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء ١٥٧]

فقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ﴾ رد وإنكار لقتله ، وإثبات لرفعه عليه السلام .

وهـذا النص قطعي الدلالة في رفع المسيح عليه السلام حياً إلى السماء ، لا يحتمل التأويل ، لأن كلمة (بل) بعد النفي يجب أن يكون ما بعدها إثباتاً للنفي المتقدم .

ولو حمل الرفع على رفع الروح فقط ، فهذا لا يضاد القتل والصلب المنفيين قبـل ، بل لاجتماع القتل مع رفع الروح ، كما أنه يلغى النفي السابق .

ولهذا فإن الآية صريحة في رفع عيسى عليه السلام حياً إلى السماء بروحه وجسده .

٢ ـ قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِن أَهلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبلَ مَوتِهِ ، وَيَومَ القِيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ [النساء ١٥٩]

فقوله : (قبل موته) أي موت عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، كما هو مروي عن ابن عباس وعبدالرحمن بن زيد وأبي هريرة ، والحسن وقتادة ، واختاره ابن جرير الطبري ، وقال ابن كثير : وهذا القول هو الحق ، وأفاد بأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، وتسليم من سَلَّم لهم ذلك من النصارى الجهلة .

فالمراد تقرير وجود عيسى عليه السلام ، وبقاء حياته في السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة . [ج ١/٥٧٧]

٣ ـ قوله تعالى :﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ . [الزخرف ٦١]

عن ابن عباس مرفوعاً في قوله تعالى : ﴿ وإنه لعِلم للساعة ﴾ قال : نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة .

[أخرجه الامام أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]

قال ابن كثير : ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى : (وإنه لَعلَمٌ للساعة) أي أمارة ودليل على وقوع الساعة .

قال مجاهد : وإنه لعَلم للساعة أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة .

أقول : فهذه الآيات تدل على بقاء عيسى عليه السلام حياً، وإنه علَم من أعلام الساعة ، وإن أهل الكتاب سوف يؤمنون به ، على أنه عبدالله ورسوله ، ويدخلون في شرع الإسلام .

الأحاديث التي تثبت نزول عيسى

١ ـ قال ﷺ : «والذي نفسي بيده لَيوشِكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وإنْ من أهل الكتاب إلا لَيؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾» . [رواه البخاري]

فهذا الحديث يدل على أن عيسى عليه السلام حي في السماء ، وأنه ينزل آخر الزمان ، ويحكم بشريعة الإسلام عند نزوله :

قال ﷺ : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» .

[رواه البخاري / كتاب الأنبياء / باب نزول عيسى ٤/١٤٢]



الكافي هو الله وحده

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسبُكَ الله وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ ﴾ [الأنفال ٦٤]

ذكر ابن القيم رحمه الله في تفسيرها أقوال :

١ ـ أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

٢ ـ إن (حسبك) في معنى كافيك ، أي : الله يكفيك ، ويكفي من اتبعك كما تقول العرب : «حسبك وزيداً درهم» وهذا أصح التقديرين .

٣ ـ أي : ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .

٤ ـ المعنى : حسبك الله وأتباعك ، وهذا إن قاله بعض الناس فهو خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل ، والتقوى ، والعبادة .

قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخدَعُوك فَإِنَّ حَسبكَ الله ، هُو الَّذِي أيدَكَ بِنَصرِهِ وَبِالمؤمِنين ﴾ . [الأنفال ٦٢]

ففرقَ بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب لله وحده ، وجعل التأييد له بنصره ، وبعباده .

وأثنى الله سبحـانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ، حيث

أفردوه ، بالحسب ، فقال تعالى :

﴿ الَّـذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّـاسُ إِنَّ النَّـاسَ قَد جَمَعُـوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزَادَهُم إِيمَاناً وَقَالُوا حَسبُنَا الله وَنِعمَ الوَكِيلُ ﴾ . [آل عمران ١٧٣]

ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله .

فإذا كان قولهم ، ومـدح الـرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسـولـه : الله وأتباعك حسبك ؟ وأفراده قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل .

ونظير هذا قوله تعالى :

﴿ أَلَيسَ الله بِكَافٍ عَبدَهُ ﴾ . [الزمر ٣٦]

والحسب هو الكافي ، فأخبره سبحانه وتعالى أنه وحده كاف عبده ، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟

والادلة الدالة على بطلان هذا التأويل أكثر من أن نذكرها هنا .

[انظر زاد المعاد لابن القيم ج ١ /٣]

الإشارة إلى كروية الأرض

قال الله تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ بِالحَقِّ يُكَوِّرُ الَّليلَ عَلَى النَّهَارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّليلِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ، أَلاَ هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ . [الزمر ٥]

هذه الآية الكريمة تناولها علماء التفسير في العصر الحاضر بالبحث والتدبر ، وذكروا أنها تشير صراحة إلى ما ثبت من أن الأرض تأخذ الوضع الكروي ، وسوف أبين أقوال المفسرين في ذلك :

١ ـ قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى :

﴿ يكور الليل على النهار ﴾ قال : يُغشي هذا على هذا كما قال : يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل .

وأسند عن ابن عباس قوله (يحمل الليل على النهار) . [ج ٢٣/ ١٢٣]

٢ ـ ويقول ابن كثير : (أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يَقِرَّان ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، كقوله :

﴿ يُغشِي الَّليلَ النَّهَارَ يَطلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ .

[الأعرف ٥٤] [انظر ابن كثيرج ٤ / ٧٠]

٣ ـ ويقول الشيخ المراغي في تفسير الآية : (أي يُغشي كلاً منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يجعلهما في تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد

دارت حول نفسها وهي مكورة ، فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ، ويلف حولها طاوياً الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار ، فالأرض كالرأس ، والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ، ويلتفان متتابعين حولها ، وفي هذا إيماء إلى كروية الأرض أولاً ، وإلى دورانها حول نفسها ثانياً ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعاً بالرمز والاشارة . [انظر تفسير المراغي ج ٢٢/ ١٤٥]

٤ ـ ويوضح هذا المعنى سيد قطب ، فيقول :

﴿ يُكوِّر الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ﴾ .

وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً من كروية الأرض ، ومع أني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطىء وتصيب ، وتثبت اليوم ، وتبطل غداً ، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ، ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكتشفه البشر الضعاف المهازيل ، مع هذا الحرص ، فإن التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض ، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ، ويكون نهاراً ، ولكن

هذا الجزء لا يثبت ، لأن الأرض تدور ، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار ، وهذا السطح مُكَور ، فالنهار كان عليه مُكَوراً ، والليل يتبعه مُكوراً كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا في حركة دائبة :

﴿ **يُكوِّر الليل على النهار ، ويُكوِّر النهار على الليل** ﴾ واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوعية طبيعة الأرض وحركتها ، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستعجب هذه النظرية

[انظر في ظلال القرآن ج ٥/٣٠٣٨]

أقول : إن هذه المكتشفات الحديثة تساعد على فهم بعض الآيات مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِم ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِم حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾

[فصلت ٥٣]

والخسوف والكسوف للشمس والقمر دليل على دوران الأرض ، لأنها تقف حائلاً بين الشمس والقمر ، وقد عرف وقت حدوثهما .

تنزيه القرآن عن دسائس الشيطان

قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ إِلَّا إِذا تَمَنَّىٰ أَلقَى الشَّيطَان فِي أُمنِيَّتِهِ ، فَيَنسَخُ الله مَا يُلقِي الشَّيطَانُ ، ثُمَّ يُحكِمُ الله ءَايَاتِهِ ، والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيجعَلَ مَا يُلقِي الشَّيطَان فِتنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ، وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبك فَيُؤمِنُوا بِهِ فَتُخبِتَ لَهُ قُلُوبُهُم ، وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاط مُستَقِيمٍ ﴾ .

[الحج ٥٢-٥٤]

١ ـ ذكر بعض المفسرين، ومنهم (المحلي) في الجلالين تفسيراً باطلاً فقال : (ألقى الشيطان في أمنيته) قراءته ما ليس من القرآن مما يرضاه المرسَل إليهم ، وقد قرأ النبي ﷺ في سورة النجم بمجلس من قريش بعد ﴿ أفرأيتم اللاَّت والعزى ، ومَناة الثالثة الأخرى ﴾ بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه ﷺ :

«تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى» ففرحوا بذلك ؛ ثم أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه من ذلك ، فحزن ، فسُلِّيَ بهذه الآية .

٢ ـ إن كلامه هذا باطل ، فلقد اتفق العلماء على أن قصة الغرانيق التي ذكرها باطلة متناً وسنداً ، وهي من وضع الزنادقة ، وردها القاضي عياض في الشفاء ، وأبو بكر العربي ، وابن كثير ، وغيرهم فيجب التحذير منها ، لأن أعداء الإسلام والمستشرقين يتخذونها مطعناً في القرآن ، وأن الشيطان يستطيع أن يدخل في القرآن ما ليس منه ، وقد ألف المحدث الألباني رسالة قيمة لردها سماها :

«نصب المنجنيق لنسف قصة الغرانيق» وهي مطبوعة .

التفسير الصحيح للآية

إن أحسن ما قيل في تفسيرها هو ما اختصره الدكتور أبو شهبة في كتابه : (الموضوعات والإسرائيليات في التفسير) حيث قال في تفسير الآية :

ولـلإجابة عن ذلك أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام (محمد عبده) في تفسيرها . وفي تفسيرها وجهان :

الأول : أن التمني بمعنى القراءة إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذي ذكره المبـطلون . بل بمعنى إلقـاء الأبـاطيل والشبـه مما يحتمله الكـلام ، ولا يكون مراداً للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلـك يؤدي إليه ، وذلـك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدَّث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل الله فيه هداية لهم ، قام في وجهه مشاغبون يتقوَّلون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس : ولا يزال الأنبياء يجادلونهم ويجاهدون في سبيل الحق ، حتى ينتصر ، فينسـخ الله ما يلقي الشيطان من شبـه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض ، ثم

يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

ثانياً : إن التمني : المراد به : تشهي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى : وما أرسل الله من رسول ، ولا نبي ليدعو قومه إلى هدى جديد ، أو شرع سابق إلا وغاية مقصوده ، وجل أمانيه ، أن يؤمن قومه ، وكان نبينا من ذلك في المقام الأعلى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف ٦]

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف ١٠٣]

ويكون المعنى : وما أرسلنا من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ألقى الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس ، فثاروا في وجهه ، وجادلوه بالسلاح حيناً وبالقول حيناً آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها . ونالوا منه وهو قليل الأتباع ، ظنوا أنَّ الحق في جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جرياً على سنته ، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا ، فينخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات ، وينشىء من ضعف أنصار الحق قوة . ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة الله هي

العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . هذا هو الحق : وما عدا ذلك فهو باطل .



تفسير رائع للعلامة الشنقيطي

لقد فسر العلامة محمد الأمين الشنقيطي الآية تفسيراً رائعاً فقد ذكر في تفسيره : (أضواء البيان) ج ٥/٧٣٢/ ما نصه :

ونحن وإن ذكرنا أن قوله : ﴿ **فينسخ الله ما يُلقي الشيطان** ﴾ يستأنس به لقول من قال : إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره : ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها ، لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي ، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم : نسخت الشمس الظل ، ونسخت الريح الأثر ، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان ، ليس مما يقرؤه الرسول أو النبي ، فالذي يظهر لنا أنه الصواب وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة ، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين : هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر ، أو أساطير الأولين ، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده .

والدليل على هذا المعنى : أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق ، لأنه قال :

﴿ **ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم** ﴾ .

فقوله : ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق** ﴾ الآية . يدل على أن الشيطان يُلقي عليهم ، أن الذي يقرؤه النبي ليس بحق فيصدقه

الأشقياء ، ويكون ذلك فتنة لهم ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه . فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة ، والعلم عند الله تعالى .

وعلى هذا القول ، فمعنى نَسخُ ما يلقي الشيطان : إزالته وإبطاله ، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم .

ومعنى يُحكم آياته : يُتقنها بالإحكام ، فيُظهر أنها وحي منزل منه بحق ، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صدَّ الناس عنها بإلقائه المذكور ، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقي في قراءة الرسول والنبي ، فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم .

بذلك الامتحان ، جاء موضحاً في آيات كثيرة قدمناها مراراً كقوله :

﴿ وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتهم إلا فتنةً للذينَ كفروا ليستَيقن الذينَ أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذينَ آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنونَ ، وليقولَ الذينَ في قلوبهم مرض والكافرونَ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، كذلك يُضل الله مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ ﴾ . [المدثر ٣١]

وقوله تعالى :

﴿ وما جعلنا القبلةَ التى كنتَ عليها إلا لنعلَمَ مَنْ يَتَّبعُ الرَّسولَ مِمَّن ينقلبُ على عقِبَيْهِ ﴾ . [البقرة ١٤٣]

وقوله : **﴿ وما جعلنا الرؤيَا التي أريناكَ إلا فِتنةً للناس والشجرة الملعونةَ**

في القرآن ﴾ [الإسراء ٦٠]

أي لأنها فتنة ، كما قال :

﴿ أذلكَ خيرٌ نُزلاً أم شجرةُ الزقُّومِ إنا جعلناها فتنةً للظالمينَ إنها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيمِ ﴾ الآية .

لأنه لما نزلت هذه الآية قالوا : ظهر كذب محمد ﷺ لأن الشجر لا ينبت في الموضع اليابس ، فكيف تنبت شجرة في أصل الجحيم إلى غير ذلك من الآيات ، كما تقدم إيضاحه مراراً ، والعلم عند الله تعالى .

واللام في قوله : ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطانُ ﴾ الآية .

الأظهر أنها متعلقة بألقي أي ألقى الشيطان في أمنيَّة الرسل والأنبياء ، ليجعل الله ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض ، خلافاً للحوفي القائل : إنها متعلقة بـ (يُحكم) ، وابن عطيه القائل : إنها معلقة بـ (ينسخ) .

ومعنى كونه : فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر .

وقوله : ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ .

أي كفر وشك . (انتهى . .) .

معنى قوله تعالى
(ووجدك ضالا فهدى)

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب :
هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أنَّ النبي ﷺ كان ضالاً قبل الوحي ، مع أن قوله تعالى :
﴿ فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ الله الَّتِي فَطَر النَّاسَ عَلَيهَا ﴾ . [الروم ٣٠]
يدل على أنه ﷺ فُطر على هذا الدين الحنيف ، ومعلوم أنه لم يهوده أبواه ، ولم ينصراه ، ولم يمجساه ، بل لم يزل باقياً على الفطرة حتى بعثه الله رسولاً ، ويدل على ذلك ما ثبت من أن أول نزول الوحي عليه كان وهو يتعبد في غار حراء ، فذلك التعبد قبل نزول الوحي دليل على البقاء على الفطرة .
والجـواب : أن معنى قوله ﴿ ضالاً فهدى ﴾ أي غافلاً عما تعلمه الآن من الشرائـــع وأسرار علوم الـدين التي لا تُعلم بالفـطرة ولا بالعقل ، وإنما تُعلم بالوحي ، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك ، فمعنى الضلال على هذا القول : الذهاب عن العلم .
ومنه بهذا المعنى قوله تعالى :
﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحدَاهُمَا فَتُذَكِرَ إِحدَاهُما الأُخرَىٰ ﴾ . [البقرة ٢٨٢]

وقوله : ﴿ لا يَضِلُّ رَبي وَلاَ يَنسَى ﴾ . [طه ٥٢]
وقوله : ﴿ قَالُوا تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ . [يوسف ٩٥]
ويدل لهذا قوله تعالى :
﴿ مَا كُنتَ تَدرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإيمان ﴾ . [الزخرف ٥٢]
لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام .
وقوله : ﴿ وإن كنت من قبلِهِ لمن الغافلين ﴾ . [يوسف ٣]
وقوله : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعلَمُ ﴾ . [النساء ١١٣]
وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرجُوا أَن يُلقَىٰ إلَيكَ الكتابُ إلَّا رَحمَةً مِن رَّبكَ ﴾
[القصص ٨٦]
وقيل : المراد بقوله : ضالاً : ذهابه وهو صغير في شعاب مكة ، وقبل ذهابه في سفره إلى الشام ، والقول الأول هو الصحيح ، والله تعالى أعلم ، ونسبة العلم إلى الله أسلم. انتهى[أضواء البيان ج٩/٣٣٤]

النهي عن التشبه بالكفار

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تقولوا راعِنا ، وقولوا انظُرنا واسمَعوا وللكافرين عذابٌ أليم ﴾ . [البقرة ١٠٤]

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية :

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله ، فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ، ويُوَرّون بالرعونة كما قال تعالى :

﴿مِن الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مُسمَعٍ وراعنا لَيّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ . [النساء ٤٦]

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلَّموا إنما يقولون : (السامُ عليكم) ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا الله أن نرد عليهم بـ (وعليكم) ، وإنما يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكفار قولاً وفعلاً ، فقال :

﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين

عذاب أليم﴾ .

وذكر بسند صحيح عن الرسول ﷺ أنه قال :

«بُعثتُ بين يدَي الساعة بالسيف ، حتى يُعبد الله وحده لاشريك له ، وجُعل رزقي تحت ظِل رمحي ، وجُعلت الذلة والصَّغار على من خالف أمري ، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم » . (صحيح رواه أحمد وغيره)

ففيه دلالة على النهي الشديد ، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم ، وغير ذلك من أمورهم التي لم تُشرَع لنا ، ولانُقَرُّ عليها .

ثم ذكر بسند أن رجلاً أتى عبدالله ابن مسعود فقال : إعهدْ إليَّ ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأوعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهي عنه .

وقال ابن جرير : والصواب عندنا أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ (راعنا) ، لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه ﷺ نظير الذي ذكر النبي ﷺ أنه قال : «لاتقولوا للعنب الكرم ، ولكن قولوا الحبَلَة ، ولا تقولوا عبدي ، ولكن قولوا فتاي» .

[الحبلة : أصل شجرة العنب ، وقضيبها] .

(أول الجزء من الحديث رواه مسلم ، والثاني رواه أحمد وهو صحيح) «ج ١ /١٤٨»

صفات عباد الرحمن

١ ـ قال الله تعالى : ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً﴾ [الفرقان ٦٣]

من صفاتهم أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع ، لا يضربون بأقدامهم تكبراً ، فقد قال تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرَحاً ، إنك لن تخرِق الأرض ولن تبلُغ الجبال طولاً ﴾ . [الإسراء ٣٧]

قال ابن كثير : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾

أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين ، فان تقطع الأرض بمشيك .

وقوله : ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ؛ بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده .

٢ ـ ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ . [الفرقان ٦٤]

أي إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيّء لم يقابلوهم بمثله ، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم ، سواء كان بصيغة السلام كقولهم : (سلام عليكم) أو غيرها مما فيه لطف في القول ، أو عفو أو صفح ، وكظم للغيظ ، دفعاً بالتي هي أحسن [انظر تفسير القاسمي]

٣ ـ ﴿ والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ﴾ . [الفرقان ٦٤]

يكون لهم في الليل صلاة وقيام ودعاء كما قال تعالى في وصفهم :

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما

رزقناهم يُنفقون ﴾ . [السجدة ١٦]

قال رسول الله ﷺ : «مَن تعارَّ من الليل فقال :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

اللهم اغفر لي ، أو دعا استُجيب له ، فإن توضأ وصلَّى قُبلت صلاته» .

[رواه البخاري وغيره]

(تعارَّ استيقظ وقال بصوت) وقد قرأت هذا الدعاء فكانت الإجابة .

٤ ـ ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غَراماً إنها ساءت مُستقراً ومُقاما ﴾ . [الفرقان ٦٥-٦٦]

ومن صفاتهم أنهم يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب النار ، لأن عذابها هلاك دائم ، وبئس المقام والمستَقَر فيها ، وفي الآية ردٌ على الصوفية القائلين بأنهم لا يعبدون الله خوفاً من ناره .

٥ ـ ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما ﴾ . [الفرقان ٦٧]

وصفهم الله بالقصد ، فهم لا يُسرفون في الإنفاق ، ولم يُضيقوا على أنفسهم وأهليهم بالبخل ، بل كانوا متوسطين :

وقال الطبري في تفسير الآية :

«الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع : ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه .
والإقتار : ما قصَّر عما أمر الله به ، والقَوام بين ذلك»
أقول : ويوضح معنى هذه الآية قوله تعالى :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولَة إلى عنقِك ، ولا تبسطها كل البَسْط ، فتقعُد مَلوماً محسوراً ﴾ . [الإسراء ٢٩]

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد ذاماً للبخل ناهياً عن السرف ، لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً ، ولا تسرف في الإنفاق ، فتعطي فوق طاقتك ، وتُخرج أكثر من دخلك ، فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ، ويستغنون عنك ، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير ، وهو كالدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً فإنها تسمى الحسير ، هكذا فسَّر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرَف : ابن عباس والحسن . . [انظر ابن كثير ج ٣/٣٧]

٦ - ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ . [الفرقان ٦٨]

هذه صفة مهمة جداً ، وهي أنهم يوحدون الله ، ولا يشركون به أحداً في جميع عباداتهم ، ولا سيما الدعاء لأنه من العبادة ، ولأن دعاء غير الله من الأموات - ولو كانوا أنبياء أو أولياء - هو من الشرك

الذي يحبط العمل ، «ولما سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟
قال : «أن تدعوا لله نِدّاً وهو خلقك» . [متفق عليه]

[النِدُّ المثيل ، ومعناه أن تدعو غير الله ، وتجعله مماثلاً له] .

٧ ـ ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ﴾ . [الفرقان ٦٨]

ومن صفاتهم أنهم لا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ومنها الوأد وغيره ، إلا بالحق المزيل لحرمتها : كالردة ، والقاتل لغيره ، والساعي في الأرض فساداً ، فيُقتلون بحق .

٨ ـ ﴿ ولا يزنون ﴾ فعباد الرحمن لا يقربون الزنا ، لأنه فاحشة وساء سبيلاً ، وفيه ضرر على الفرد والجماعة ، حيث يورث الأمراض ، ويضيع الأنساب ، ويُدمر الأُسرة وغير ذلك من المخاطر .

﴿ ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاماً ، يُضاعَفْ له العذابُ يوم القيامة.ويخلُد فيه مُهانا ﴾ . [٦٨-٦٩]

ومن يفعل ما تقدم من الكبائر كدعاء غير الله ، وقتل النفس ، والزنا ، فإنه يلق جزاءً يوم القيامة بأن يكرر عليه العذاب ، ويخلد فيه ذليلاً حقيراً .

﴿ إلا من تاب ﴾ إلى الله في الدنيا من جميع ما فعل ، فإن الله يتوب عليه إذا قام بشروط التوبة .

٩ ـ ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ [الفرقان ٧٢]

قال الطبري : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال :

والـذين لا يشهدون شيئاً من الباطل ، لا شِركاً ، ولا غِناء ، ولا كذباً ، ولا غيره ، وكل ما لزمه اسم الزور ، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور ، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو فعل .

وقد قال رسول الله ﷺ :

«**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» ثلاثاً ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : «**الشرك بالله ، وعقوق الوالدين**» وكان متكئاً فجلس فقال : «**ألا وقول الزور ؛ ألا وشهادة الزور**» .

فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . [متفق عليه]

١٠ ـ ﴿ وإذا مروا باللغو مَروا كِراماً ﴾ [الفرقان ٧٢]

جاوزوه حلماء معرضين عنه . قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعـل باطل لا حقيقة له ولا أصل ، أو ما يُستقبح ، فسَبُّ الإنسانِ الإنسانَ بالباطل الذي لا حقيقة له ، من اللغو وذِكر النكـاح بصريح اسمـه مما يستقبـح في بعض الأمـاكن ، فهو من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه ، وسماع الغناء هو مما يستقبح في أهل الدين ، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو ، فلا وجه ـ إذا كان كل

ذلك يلزمه اسم اللغو- أن يقال : عنى به بعض ذلك دون بعض ، إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل . أهـ.

١١ - ﴿ والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخِرّوا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾ . [الفرقان ٧٣]

قال ابن كثير : وهذه أيضاً من صفات المؤمنين :
﴿ الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهم ، وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ . [الأنفال ٢]
بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه . بل يبقي مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله .
سئل الشعبي عن الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : ﴿والذين إذا ذكروا . . ﴾ .
يعني أنه لايسجد معهم ، لأنه لم يتدبر أمر السجود ، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمَّعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بين .
وقال قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿ والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يَخِروا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾ .
يقول : لم يَصُمّوا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . [ج ٣/ ٣٢٩]

١٢ - ﴿ والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذُرِّياتنا قُرَّة

أعين ﴾ . [الفرقان ٧٤]

قال ابن كثير : يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم ومن ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لاشريك له .

قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقرّ به أعينهم في الدنيا والآخرة .

قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صبا حة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال : أن يُري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله . لا والله لا شيء أَقَرُّ لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولدَ ولدٍ أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾اجعلنا أئمة يُهتدى بنا .

قال ابن كثير : قال ابن عباس والحسن والسدي :

اجعلنا أئمة يُقتدى بنا إلى الخير .

وقال غيرهم : اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير .

﴿ أولئك يُجزون الغُرفة بما صبروا ، ويُلقَّون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسُنت مُستقراً ومُقاماً ﴾ . [الفرقان ٧٥-٧٦]

قال ابن كثير لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من

الصفـات الجميلة ، والأقـوال والأفعـال الجميلة ، قال بعد ذلك (أولئك) المتصفون بهذه (يُجزون) يوم القيامة (الغرفة) وهي الجنة (بما صبروا) أي على القيام بذلك (ويُلَقَّون فيها) أي في الجنة (تحية وسـلامـاً) أي يُبتـدرون فيهـا بالتحية والإكـرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقـولـه تعـالى : ﴿ خالـدين فيها ﴾ أي مقيمين ولا يُحولون ، ولا يموتون ، ولا يزالون عنها .

وقوله تعالى : ﴿ حَسُنت مُستقراً ومُقاماً ﴾

أي حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً . [ج ٣/ ٣٣٠]



من فوائد الآيات

١ ـ فضيلة التواضع والسكينة في المشي ، وتحريم التكبر .
٢ ـ فضيلة رَدّ السيئة بالحسنة .
٣ ـ فضل قيام الليل والدعاء .
٤ ـ فضيلة الاعتدال في النفقة .
٥ ـ تحريم الشرك والقتل والزنى .
٦ ـ التوبة تمحو الذنوب بشروطها .
٧ ـ تحريم شهود الزور وشهادته .
٨ ـ فضيلة الإعراض عن اللغو .
٩ ـ فضل تدبر القرآن والعمل به .
١٠ ـ من اتصف بصفات عباد الرحمن فله الجنة والتكريم .

كيفية الدعوة إلى الله

قال الله تعالى : ﴿ **ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ . [النحل ١٢٥]

١ ـ قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

يقول الله تعالى آمراً رسوله محمدا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة .

قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ، والموعظة الحسنة : أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى .

وقوله ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين ، وحسن خطاب ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ . [العنكبوت ٤٦]

فأمره تعالى بلين الجانب ، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون بقوله :

﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعلَّه يتذكر أو يخشى** ﴾ . [طه ٤٤][ج٢/ ٥٩١]

٢ ـ وقال ابن القيم في تفسير الآية السابقة :

جعل الله سبحانه وتعالى مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق :

أ ـ فالمستجيب القابل الذكي الذي **لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة** .

ب ـ والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر : **يدعى بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب** .

ج ـ والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن .

هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية ، لا ما يزعم أسير منطق اليونان : أن الحكمة : قياس البرهان ، وهي دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة : قياس الخطابة ، وهي دعوة العوام ، وبالمجادلة بالتي هي أحسن : القياس الجدلي ، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلَّم المقدمات . وهذا باطل ، وهو مبني على أصول الفلسفة ، وهو مناف لأصول المسلمين ، وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها . [مفتاح دار السعادة ج ١/١٩٣]

من فوائد الآية

١ ـ وجوب الدعوة إلى الإسلام والبدأ بالتوحيد ، **وهو واجب كفائي إذا قام به البعض أجزأ ذلك عنهم .**

٢ ـ بيان أسلوب الدعوة : **وهو أن يكون بالكتاب والسنة .**

٣ ـ دعوة الناس تكون بالرفق واللين ، **والابتعاد عن الغلظة والشدة .**

قال تعالى : **﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ، ولو كنت فَظَّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . . ﴾ .** [آل عمران ١٥٩]

الدعوة تقوم على العلم

قال الله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعَني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

[يوسف ١٠٨]

١ ـ قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية :

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي .

وقوله : ﴿ **وسبحان الله** ﴾ أي وأنزه الله وأُجله وأُعظمه وأُقدسه عن أن يكون له شريك ، أو نظير أو عديل ، أو نديد ، أو ولد ، أو والدة ، أو صاحبة ، أو وزير ، أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه عن ذلك كله عُلواً كبيراً .

[ج ٢/ ٤٩٥]

٢ ـ وقال الطبري : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد : هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاء إلى

طاعته ، وترك معصيته (سبيلي) وطريقتي ودعوتي أدعو إلى الله وحده لا شريك له .

(على بصيرة) بذلك ويقين وعلم مني به أنا ، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وآمن بي .

(وسبحان الله) يقول تعالى ذكره : وقل تنزيهاً لله ، وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه .

(وما أنا من المشركين) يقول : وأنا بريء من أهل الشرك به ، لست منهم ، ولا هم مني .

[تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ج ١٦/ ٢٩٠]

من فوائد الآية وتفسيرها

١ ـ الأمر بالدعوة إلى توحيد الله ، وتقديمه على غيره .

٢ ـ التوحيد يتمثل في كلمة لا إله إلا الله ، ومعناها :
(لا معبود بحق إلا الله) .

٣ ـ الداعية يجب أن يدعو على علم وبصيرة في أمور دينه ، **فينفع الناس ، والجاهل يضر أكثر مما ينفع .**

٤ ـ تنزيه الله تعالى عن **الشريك في الذات والصفات .**

٥ ـ البراءة من الشرك : **وهو صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله : كدعاء الأموات ، أو الغائبين ، أو الحكم بغير الإسلام . .**

٦ ـ العلم قبل القول والعمل ، **قال تعالى :**
﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ . [سورة محمد ١٩]

وقال البخاري في كتابه (باب العلم قبل القول والعمل) .

قلت : إن المسلم لا يستطيع أن يقول و يعمل عملاً صحيحاً مقبولاً قبل أن يعلم .

استجيبوا لله وللرسول

قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم ، واعلموا أن الله يَحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون ﴾ . [الأنفال ٢٢]

١ ـ قال البخاري (استجيبوا) أجيبوا (لما يُحييكم) لما يصلحكم .

٢ ـ وقال مجاهد : في قوله : (يُحييكم) قال للحق .

٣ ـ وقال قتادة : قال هذا هو القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة .

٤ ـ وقال السدي : (لما يُحييكم) ففي الإسلام احياؤهم بعد موتهم بالكفر .

٥ ـ وقال عروة بن الزبير : (لما يحييكم) أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . [انظر ابن كثير ٢٩٧/٢]

وإنما سمي الجهاد حياة ،لأن في وهن عدوهم بسببه حياة لهم وقوة ، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي مَعدِن للحياة كما قال تعالى :

﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيَوان﴾
(أي الحياة الدائمة) [ذكره القاسمي في محاسن التاويل ج ٣٤/٨]

٦ ـ وقال الفراء : (لما يحييكم) إحياء أمورهم .

فيُخرَّج في إحيائهم خمسة أقوال :

الأول : أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .
الثاني : بقاء الذكر الجميل لهم في الدنيا ، وحياة الأبد في الآخرة .
الثالث : أنه دوام نعيمهم في الآخرة .
الرابع : أنه كونهم مؤمنين ، لأن الكافر كالميت .
الخامس : أنه يحييهم بعد موتهم ، وهو على قول من قال : هو الجهاد ، لأن الشهداء أحياء ، ولأن الجهاد يعزهم بعد ذلهم : فكأنما صاروا به أحياء .

[انظر زاد المسير ٣/٣٣٩]

قوله : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)

أولاً ـ قال القاسمي : يحتمل وجوهاً من المعاني :

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه ، فيصرفه كيف يشاء فيحول بينه وبين الكفر ؛ إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان إن أراد ضلالته ، وهذا المعنى رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس وصححه .

ويؤيده ما روي أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول :

«يا مُقلّب القلوب ثبتْ قلبي على دينك» [رواه أحمد]

«إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ :

«اللهم مُصرّف القلوب ، صرّف قلوبنا إلى طاعتك»
[رواه مسلم في كتاب القدر]

ثانيها : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة قبل حلول المنية .

فمعنى (يحول بين المرء وقلبه) يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها ، وهي التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليماً كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه الذي به يعقل في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .
[انظر تفسير القاسمي محاسن التأويل ٨/ ٣٥]

أقول : وفي الحديث دلالة على إثبات الأصابع للرحمن على ما يليق به تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل ، ومثلها اليدين ، والساق ، والقدم ، والوجه ، وغيرها من الصفات الثابته في الكتاب والسنة .

١ ـ (يحول بين المرء وقلبه) يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر والإيمان .
[مروي عن ابن عباس]

٢ ـ يحول بين المؤمن وبين معصيته ، وبين الكافر وبين طاعته .
[رواه العوفي عن ابن عباس]

٣ ـ يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل . [قاله مجاهد]

قال ابن الأنباري : المعنى : يحول بين المرء وعقله ، فبادروا الأعمال ، فإنكم لا تأمنون زوال العقول ، فتحصلون على ما

قدمتم .

٤ ـ أن المعنى : هو قريب من المرء لا يخفى عليه شيء من سره . [قاله قتادة]

٥ ـ يحول بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه . [ذكره ابن قتيبة]

٦ ـ يحول بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع أيماناً ولا كفراً إلا بإذنه . [قاله السدي]

٧ ـ يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره .

٨ ـ يحول بين المرء وقلبه بالموت ، فبادروا بالأعمال قبل وقوعه .

٩ ـ يحول بين المرء وقلبه بعلمه ، فلا يضمر العبد شيئاً في مفسدة إلا والله عالم به لا يقدر على تغيبه عنه .

١٠ ـ يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن ، فيأمن بعد خوفه ، ويخاف بعد أمنه . [زاد المسير ٣ / ٣٣٩]

ثالثاً : وقال الطبري بعد أن ذكر أقوالاً شبيهة بما تقدم :

إن الله عمَّ بقوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئاً دون شيء ، والكلام محتمل كل هذه المعاني ، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له .

ضعف الخلق وقوة الخالق

قال الله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفُذوا من أقطار السموات والأرض فانفُذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ . [الرحمن ٣٣]

١ ـ «أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لاتقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر : الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب (إلا بسلطان) :

أي إلا بأمر الله ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لا وزَرَ إلى ربك يومئذ المُستَقر ﴾ . [القيامة ١٠-١٣]

وقال تعالى ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئة بمثلها وترهقُهم ذِلّة ما لهم من الله من عاصم كأنما أُغشِيتْ وجوهُهم قِطعاً من الليل مُظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . [يونس ٢٧]

ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرسَلُ عليكما شُواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ . [الرحمن ٣٦]

والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لِترجعوا ، ولهذا قال :

﴿فلا تنتصران . فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .
[انظر تفسير ابن كثير ج٤ / ٢٧٤]

٢ ـ وقال القاسمي في تفسير الآية :

(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) أي تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم ، أي بخروجكم عن قهره ، ومحل سلطانه ومملكته ، حتى لا يقدر عليكم **(فانفذوا)** أي فجوزوا واخرجوا **(لا تنفذون إلا بسلطان)** أي بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟

ونحوه : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا في السماء ﴾ .
[العنكبوت ٢٢]

ويقال معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعني البينة من الله تعالى ، والأول أظهر ، لأنه لما ذكر في الآية الأولى أنه لا محالة مجازٍ للعباد عقبه بقوله ﴿ **إن استطعتم** . . . ﴾ إلخ لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده .

﴿ **فبأي آلا ربكما تكذبان** ﴾ . [الرحمن ٣٤]

قال ابن جرير : أي من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم .

وقال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي

بالجزاء والانتقام من الكفار من عِداد الآلاء (النِعم) .
[تفسير القاسمي ج ١٥/ ٢٩٢-٢٩٥]

٣ ـ من فوائد الآية : بيان جلال الله وقدرته وسلطانه ، وبيان عجز الخلق أمام خالقها عز وجل في الدنيا والآخرة .



معاني فواتح السور

قال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ، الٓر ، الٓمٓصٓ ، حمٓ عٓسٓقٓ ، نٓ ﴾
اختلف المفسرون في معنى هذه الحروف ، فمنهم من قال :

١ ـ هي مما استأثر الله بعلمه ولم يفسروها .

٢ ـ هي أسماء للسور ، واستدلوا على ذلك بالحديث :
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ السجدة ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ . [متفق عليه]

وقال مجاهد : ﴿ الٓمٓ ، وحمٓ ، والمص ، وصٓ ﴾ :
فواتح افتتح الله بها القرآن (أي أسماء سوره) .

٣ ـ وقال آخرون : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها .
وحكى هذا القول جمع من المحققين منهم : الرازي ، والقرطبي ، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ المزي .
قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن ؛ وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدي بالصريح في أماكن ، وجاء منها على حرف واحد

كقوله : ﴿ص ، ن ، ق﴾ وحرفين مثل : ﴿حمٓ﴾ ، وثلاثة مثل : ﴿آلم﴾ ، وأربعة مثل : ﴿آلمر ، آلمص﴾ ، وخمسة مثل : ﴿كهيعص ، حم . عسق﴾ لأن أساليبهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف ، وعلى حرفين ، وعلى ثلاثة ، وعلى أربعة ، وعلى خمسة ، لا أكثر من ذلك . [انظر تفسير ابن كثير ج١/٣٦]

قال ابن كثير : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف ، فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة .

ولهذا يقول تعالى : ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ . [البقرة]

﴿حم تنزيلٌ مِن رب العالمين﴾ . [سورة فصلت]

﴿ألمص كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرجٌ منه﴾ . [أول سورة الأعراف]

٤ ـ وأما من زعم أنها دالة على معرفة المُدَدَ ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره .

٥ ـ لا شك أن الله لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سُدى ؛ ومن قال من الجهلة أن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له ، فقد أخطأ خطأً كبيراً ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا عن المعصوم شيء

قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا **﴿ آمنا به كلٌ مِن عند ربنا ﴾** .
[البقرة]

ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين ، وإنما اختلفوا ، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام .
[تفسير ابن كثير ج ١/٣٧]

كيف نلفظ هذه الحروف

يجب أن نلفظ الحروف التي في أوائل السورة مقطعة حرفاً حرفاً لقول رسول الله ﷺ :

«مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (آلم) حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» . [صحيح رواه الترمذي وغيره]

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **آلمر** ﴾ ألف ، لام ، ميم ، را .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **آلمص** ﴾ **ألف ، لام ، ميم ، صاد** .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ **آلر** ﴾ **ألف ، لام ، را** .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ **حم ، طس** ﴾ **حا ، ميم ، طا ، سين** .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ **ن ، ق ، ص** ﴾ **نون ، قاف ، صاد** .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ **كهيعص** ﴾ **كاف ، ها ، يا ، عين ، صاد** .

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ **حم . عسق** ﴾ **حا ، ميم ، عين ، سين ، قاف** .

٨ ـ بعض هذه الحروف تمد حركتين مثل : كاف ، ها ، يا ، را .

٩ ـ وبعض الحروف تُمدأكثر مثل : نون ، قاف ، صاد ، ميم ، عين .

١٠ ـ يُعرف التلفظ بالحروف بالسماع من القراء والمشايخ .

السحر من عمل الشياطين

قال الله تعالى :

﴿ ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مُصدِّقٌ لِما معهم نبذَ فريقٌ من الذين أُوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظهورِهم كأنهم لا يعلمون . واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان ، وما كفر سليمان ولكنَّ الشياطين كفروا يُعلِّمون الناسَ السحرَ وما أُنزِل على الملَكين بِبَابل هاروتَ وماروتَ وما يُعلِّمانِ مِن أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفرْ فيتعلَّمون منهما ما يُفرِّقون به بين المرءِ وزوجِه وما هم بضارّين به من أحدٍ إلا بإذن الله ويتعلّمون ما يَضُرهم ولا ينفعهم . ولقد علِموا لَمَن اشتراه ما له في الآخرةِ مِن خلاق ، ولَبِئس ما شرَوْا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون ، ولو أنهم آمنوا واتقَوْا لَمثوبَةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾ «البقرة ١٠١ - ١٠٣».

لما جاء محمد ﷺ مصدقاً للتوراة التي مع اليهود كذبوه، ونبذوا القرآن والتوراة وراء ظهورهم ولم يعملوا بها، واتبع اليهود ما تفتري الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطين السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم، فكذبهم الله تعالى وبرأ النبي سليمان من السحر الذي فيه الكفر والضرر، وأسند السحر والكفر إلى الشياطين الذين علموه لليهود، وأن هذا السحر لم ينزله الله على

المَلَكين هاروت وماروت.

قال العلامة القاسمي في تفسيره: والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في (بابل) وهي مدينة بالعراق، وكانا يعلمان الناس السحر؛ وبلغ من حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملَكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله، وبلغ مكرُ هذين الرجلين أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما **﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾** يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلٰهية، وصناعتهما روحانية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان قائلين لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم: نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء.

ولليهود خرافات كثيرة، حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهم من الله، وأن ملكين جاءا لتعليمه للناس، فجاء القرآن مكذباً لهما في دعواهم نزوله من السماء، وفي ذم السحر ومن يتعلمه أو يعلمه، فقال:

﴿يُعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملَكين﴾ الآية.

فـ (ما) هنا نافية على أصح الأقوال، ولفظ (الملَكين) هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت، (جـ١/ ٢١٠).

ما يستفاد من الآية

١ - الإعراض عن الكتاب والسنة يوقع الشر والفساد والظلم والسحر.

٢ - كفر الساحر، وتحريم تعلم السحر، وتحريم استعماله.

٣ - السحر له ضرر، ويُدفع بقراءة المعوذتين ودعاء الله وحده.

٤ - يحرم تصديق الكاهن والعراف والساحر لقوله ﷺ:

«من أتى كاهناً أو عرافاً فصدَّقه فقد كفر بما أنزل على محمد». «صحيح: رواه أحمد»

٥ - باب التوبة مفتوح للساحر وغيره ولو كان كافراً.

* * *



الخسارة للكافرين والفوز للمؤمنين

قال الله تعالى : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفي خُسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر ﴾ .

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر ، وقال مالك عن يزيد بن أسلم هو العصر ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم .

﴿ وتواصَوا بالحق ﴾ وهو أداء الطاعات وترك المحرمات .

﴿ وتواصَوا بالصبر ﴾ أي على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهون عن المنكر . [انظر تفسير ابن كثير ج ٤/٥٤٧]

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم .

وذلك لما فيها من المراتب العالية التي باستكمالها يحصل للمسلم غاية كماله :

الأولى : معرفة الحق ، والثانية : عمله به . والثالثة : تعليمه من لا يحسنه ، والرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

من فوائد السورة

١ ـ فضل سورة العصر لاشتمالها على طريق النجاة .

٢ ـ لله أن يقسم بما شاء لأنه الخالق له .

٣ ـ لا يجوز الحلف بغير الله للعباد لقوله ﷺ :

أ ـ «من حلف بغير الله فقد أشرك» . [صحيح رواه أحمد]

ب ـ «لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فلْيَصدق ، ومن حُلِف له فلْيرضَ ، ومن لم يرضَ بالله فليس من الله» . [صحيح رواه ابن ماجه]

ج ـ وقال عبدالله بن مسعود :

«لأن أحلف بالله كاذباً خير من أن أحلف بغيره صادقاً» .

٤ ـ بيان مصير الإنسان الكافر ، وأنه في خسران .

٥ ـ بيان فوز أهل الإيمان والعمل الصالح الموافق للشرع .

٦ ـ الإيمان : قول وعمل ، يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي .

٧ ـ وجوب التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر بين المسلمين .

٨ ـ وجوب الصلاة مع الجماعة ، ولا سيما صلاة العصر .

٩ ـ الزمن له قيمة عند المسلم ، فيقضيه بطاعة الله .

محتويـــات الكتـــاب